المعجزة فى فلسفة اسبينوزا

"دراسة تحليلية نقدية"

إعـداد

الدكتور / يحيى عبد العليم إسماعيل

المدرس بقسم العقيدة والفلسفة

بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

Email: Yahya.AbdelAlem@azhar.edu.eg

ملخص :

المعجزة فى فلسفة اسبينوزا " دراسة تحليلية نقدية "

إعداد الدكتور / يحيى عبدالعليم إسماعيل

مدرس العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

تتناول هذه الدراسة المعجزة في فلسفة اسبينوزا، بهدف الكشف عن أسباب رفضه للمعجزة، وتحديد المبادئ التي انطلق منها في اعتراضاته عليها، والرد على هذه الاعتراضات، ونقد المبادئ.

وقد بدا الباحث دراسته هذه بتحديد المعنى المقصود بالمعجزة عند اسبينوزا، مبينا أنها تعني مجرد عمل يتجاوز حدود الفهم الإنساني له علته الطبيعية، مبينا أنه يترتب على هذا المعنى أن اسبينوزا ينكر إمكان المعجزات أو وقوعها.

ثم انتقل الباحث بالحديث عن المبادئ العلمية والفلسفية التي أقام عليها اسبينوزا اعتراضاته على المعجزة فتحدث عن مبدأ الحتمية وكيف شكل هذا المبدأ منطلقا رئيسيا في اعتراضات اسبينوزا على المعجزة، ثم تحدث عن فكرة التوحيد بين الإله والطبيعة وكيف مثلت منطلقا أساسيا لرفض المعجزات.

ثم انتقل الباحث إلى الحديث عن تفسير اسبينوزا لبعض معجزات الكتاب المقدس، ومنهجه في دراسة المعجزات، في ضوء رفضه لإمكانها أو وقوعها.

ثم قام الباحث بالرد على اعتراضات اسبينوزا على المعجزة، فانتقد مبدأ الحتمية مستندا إلى النظريات العلمية الحديثة التي أثبت عدم إطراد هذا القانون في جميع ظواهر الطبيعة، ثم توجه بنقده لفكرة التوحيد بين الإله والطبيعة، مبينا أنها تتناقض مع البداهة الحسية والعقلية الشاهدة بتعدد الموجودات تعددا حقيقيا، ثم رد الباحث ردا تفصيليا على جميع اعتراضات اسبينوزا على المعجزة، مبينا فسادها جميعا، وأنه لا يمكن التسليم بها.

ثم ختم الباحث هذه الدراسة بعرض لأهم النتائج التي توصل إليها في دراسته.

الكلمات المفتاحية : المعجزات– الفلسفة – الاعتراضات – الحتمية.

Email: Yahya.AbdelAlem@azhar.edu.eg

" The miracle issue in Spinoza's philosophy "
" A critical analytical study "

Dr. / Yehia Abdel-Aleem Ismail
Lecturer of Faith and Philosophy,
Faculty of Fundamentals of Religion and Islamic Call in Tanta

This study heals with the miracle issues in Spinoza's philosophy with the aim of revealing the reasons for his rejection of the miracle , identifying the principles from which he started his objections , responding to these objections , and criticizing these principles.

The researcher has started his study by defining the meaning of the miracle at Spinoza , indicating that it means merely a work that goes beyond the limits of human understanding and has it's natural reason , indicating that in this sense , Spinoza denies the possibility or occurrence of miracles.

Then , the researcher spoke about the scientific and philosophical principles on which Spinoza based his objections to the miracle and talked about the principle of determinism which is considered the starting point of Spinoza's objections to the miracle.He , then , talked about the idea of unification between God and nature that represented a basic platform for the rejection of miracles.

The researcher began to talk a bout Spinoza's interpretation of some of the Bible's miracles and his approach in the study of miracles in the light of his refusal to their possibility or occurrence.

The researcher , then responded to Spinoza's objection to the miracle by criticizing the principle of determinism

based on the modern scientific theories which proved that this law is non-progressive in all natural phenomena. He , then , criticized the idea of unification between God and nature pointing out that it contradicts the sensory and mental obviousness that bears witness to the multiplicity of assets.

The researcher responded, in detail , to all Spinoza's objections to the miracle , indicating all their corruption and that it can not be accepted.

The researcher concluded this study by showing the most important results he had reached in his study.

Keywords: miracles, philosophy, objections, determinism.

Email:Yahya.AbdelAlem@azhar.edu.eg

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد النبيين، وخاتم المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، وبعد..

احتلت قضية الرد على منكري المعجزات مكانا بارزا في الدراسات العقدية وفي تاريخ الفكر الإسلامي بصفة عامة، وذلك لما تمثله من أهمية في إثبات النبوة والوحي الإلهي، وقد قامت جميع الفرق الإسلامية بالرد على الاعتراضات التي وجهت إلى المعجزات، وكشفت عن تهافتها وفسادها.

وبالرغم من ذلك فقد وجد في العصر الحديث من ينكر المعجزات تحت دعوى أن حقيقتها تقوم على انخرام النظام الطبيعي وخرق القوانين الطبيعية، وهذا غير ممكن، إذ أن النظام الطبيعي ثابت لا يمكن تغييره وقوانينه مطردة لا يمكن خرقها أو تعطلها.

وقد قوى هذا الإنكار بعد اعتراضات اسبينوزا على المعجزات وإنكار هيوم لإمكانها ووقوعها، وتبنى دعاة الدين الربوبي لهذه الاعتراضات، حتى أصبح القول بعدم إمكان المعجزات وإنكارها من المبادئ التي تقوم عليها الفلسفة الكونية لدعاة هذا المذهب.

وقد اهتم المنكرون للمعجزات من الملحدين والعلمانيين في وقتنا الحاضر بهذه الاعتراضات اهتماما كبيرا، إذ وجدوا فيها الوسيلة الناجعة التي من خلالها ينفذون إلى هدم العقائد والدين كلية، وذلك بالطعن في أحد أهم أسسه التي يقوم عليها، وهو المعجزات، فوجهوا سهام نقدهم إليها، وقالوا بعدم إمكانها عقلا، واستحالة حدوثها واقعا وأن الاعتقاد بحدوثها يتناقض مع العقل، ويهدم العلم، وحكموا بأن ما ورد في الكتب المقدسة من معجزات ما هي في الحقيقة إلا حوادث طبيعية جهل العامة عللها فقالوا عنها معجزات، وهي في الواقع ظواهر طبيعية لها أسبابها الطبيعية، ولذا حاولوا تأويلها بما يخرجها عن كونها فعلا خارقا لنظام الكون.

ومما لا شك فيه أن هذه الاعتراضات تمثل خطورة كبيرة على العقيدة، إذ أن الطعن في المعجزات، يعني الطعن في النبوة والوحي وفي جميع ما أتى به الأنبياء من عقائد وشرائع، ويترتب على ذلك الشك في الدين إن لم يكن إنكارا له، وهذا ما يهدف إليه الملحدون ويروجونه عبر اعتراضاتهم التي تمثل طعنا في النبوة والمعجزات.

وقد رأيت أثناء مطالعتي لهذه الاعتراضات أنها في معظمها تكرارا وترديدا لاعتراضات اسبينوزا على المعجزة في رسالته في اللاهوت والسياسة، فدفعني ذلك إلى البحث عن تصور اسبينوزا لمفهوم المعجزة، والرد على هذه الاعتراضات، فكان هذا البحث والذي حمل عنوان " المعجزة في فلسفة اسبينوزا – دراسة تحليلية نقدية " والذي استخدمت فيه المنهج التحليلي والمنهج النقدي، وقد بني على مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

ففي المقدمة تحدثت عن أهمية البحث، وخطته التي يقوم عليها، ومنهج البحث.

وفي التمهيد : تحدثت فيه عن التعريف باسبينوزا، وعرض موجز للمعجزة في العقيدة الإسلامية.

أما المبحث الأول : فجاء بعنوان " اعتراضات اسبينوزا على المعجزة " وفيه تحدثت عن المقصود بلفظ المعجزة عند اسبينوزا، والمحاور التي أقام عليها اعتراضاته، وصورة هذه الاعتراضات.

وأما المبحث الثاني : فكان عنوانه " تفسير اسبينوزا لمعجزات الكتاب المقدس" وفيه تحدثت عن منهج اسبينوزا في دراسة المعجزة، وعرض لبعض معجزات الكتاب التي فسرها اسبينوزا بالعلل الطبيعية.

وأما المبحث الثالث : فكان عنوانه " نقد المحاور والرد على الاعتراضات " وفيه أثبت أن المحاور التي انطلق منها اسبينوزا لنقد المعجزات لا يمكن التسليم بها ولا قبولها، وكذلك بينت فساد هذه الاعتراضات وتهافتها.

ثم كانت الخاتمة والتي أجملت فيها نتائج البحث عن المعجزة في فلسفة اسبينوزا.

تمهيـد

أولا : اسبينوزا " حياته ومؤلفاته " :

ولد " باروخ اسبينوزا " أو " بندكت اسبينوزا " في أمستردام في الرابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٦٣٢م من أسرة يهودية برتغالية هاجرت إلى هولندا في نهاية القرن الخامس عشر تقريبا "(١).

وكانت أسرته من فئة تسمى (المارنو) وهم من اليهود الذين اضطروا تحت وطأة الحكم إلى إخفاء ديانتهم الحقيقية واعتناق المسيحية ظاهريا، ثم عادوا إلى كشف حقيقتهم عندما سنحت لهم فرصة الهجرة إلى هولندا (٢)، فأعلنوا صراحة المجاهرة باليهودية، وبذلك نشأ اسبينوزا في الجالية اليهودية بأمستردام وفق الأعراف اليهودية (٣).

بدأ اسبينوزا تعليمه مبكرا إذ أراد والده أن يصير حاخاما فتلقى اللغة العبرية ودرس العهد القديم والتلمود(٤) واطلع على تأملات القابلة التي تأثرت بالتراث الأفلاطوني المحدث، ودرس بعد ذلك كتابات الفلاسفة اليهود مثل موسى بن ميمون، وتعلم مبادئ اللغة اللاتينية وواصل دراسته لها على يد " فرانسيس فان دن إنده " وهو مسيحي، الذي في ظل تعليمه درس الرياضيات والفلسفة المسيحية كما أنه تعلم اليونانية،وعرف الفرنسية والهولاندية بالطبع(٥).

---

(١) فردريك كوبلستون : تاريخ الفلسفة " الفلسفة الحديثة " المجلد الرابع ص٢٨٣ ترجمة سعيد توفيق ، محمود سيد أحمد ، نشر المركز القومي للترجمة – القاهرة – الطبعة الأولى ٢٠١٣م .

(٢) د / فؤاد زكريا : اسبينوزا ص٢١ نشر دار التنوير – لبنان – الطبعة الثانية – ١٩٨٣م .

(٣) فردريك كوبلستون : تاريخ الفلسفة " الفلسفة الحديثة " المجلد الرابع ص٢٨٣.

(٤) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص١٠٦ طبعة دار المعارف – مصر – الطبعة الخامسة

(٥) فردريك كوبلستون : تاريخ الفلسفة " الفلسفة الحديثة " المجلد الرابع ص٢٨٤.

وبالرغم من أن اسبينوزا نشأ وتعلم في ظل التراث اليهودي، إلا أنه وجد نفسه عاجزا عن قبول اللاهوت اليهودي، ظهر ذلك في مناقشاته الجريئة والحادة، ومن عدم اكتراثه بالطقوس والشعائر التي يتبعها المجتمع اليهودي، مما أغضب زعماء الطائفة اليهودية في أمستردام، والذين حاولوا إثناءه وإرضاءه بجميع الوسائل لكنه لم يقبل ذلك، فصدر في سنة ١٦٥٦ مرسوما بطرده من الطائفة اليهودية والحرمان من المشاركة الكنسية وهو لم يتجاوز الرابعة والعشرين بعد[١].

وقد حصل زعماء الجالية اليهودية من السلطة المدنية على أمر بإقصائه من المدينة، إذ كان البروتستانت أيضا يعدونه رجلا خطرا، فأقام عند صديق في إحدى الضواحي، ومكث هناك خمس سنوات يكسب رزقه بصقل العدسا[٢].

وفي عام ١٦٦٠ ذهب ليقيم في لندن، وعندما كان هناك انخرط في مراسلات مع " هنري أولد نبورغ " أمين سر الجمعية الملكية في لندن، وفي عام ١٦٦٣ انتقل إلى مكان بجوار " لاهاي " حيث زاره " ليبنتز " في عام ١٦٧٦، ولم يشغل " اسبينوزا " وظيفة أكاديمية على الإطلاق، وفي عام ١٦٧٦ عرض عليه كرسي الفلسفة في جامعة " هيدلبرج " ولكنه رفض، ويرجع ذلك إلى أنه كان يريد أن يكون حرا تماما، ولكن على أية حال لم يكن " اسبينوزا " الرجل الذي يبحث عن الشهرة، وتوفي " اسبينوزا " إثر إصابته بالسل في عام ١٦٧٧م [٣].

---

(١) د / فؤاد زكريا : اسبينوزا ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص١٠٦ .

(٣) فردريك كوبلستون : تاريخ الفلسفة " الفلسفة الحديثة " المجلد الرابع ص٢٨٤.

مؤلفاته :

نشر " اسبينوزا " أثناء حياته كتابين فقط، ولم يصدر باسمه سوى عمل واحد منهما،وهو"مبادي الفلسفة الديكارتية"وفيه عرض لفلسفة" ديكارت" بالمنهج الهندسي[١]، أما الكتاب الثاني فهو"رسالة في اللاهوت والسياسة " وقد نشر في أمستردام عام ١٦٧٠م وقد بالغ اسبينوزا في الاحتياط فنشره غفلا عن اسمه [٢].

والكتاب يشمل بحثا مفصلا عن العلاقة بين الدين والدولة،وبينه وبين الفلسفة،ونقدا للكتاب المقدس،وحديثا مفصلا عن الأنبياء والمعجزات في الكتاب المقدس.

وبعد وفاة اسبينوزا نشر تلاميذه وأصدقاؤه سنة ١٦٧٧ مجموعة من مؤلفاته بعنوان " المؤلفات المخلفة " وذكر اسم المؤلف بحروفه الأولى فقط [٣]، وهي تحوي رسالة في إصلاح العقل التي كتبها في أثناء إقامته بالقرب من لندن، والأخلاق مبرهنا عليها بالطريقة الهندسية والذي يعد أكثر أعماله أهمية، ورسالة سياسية، وتم اكتشاف مؤلفه رسالة موجزة في الله والإنسان وسعادته في عام ١٨٥١، وعرف بوجه عام بالرسالة الموجزة، وتحوي أعمال اسبينوزا الكاملة مقالا أو مقالتين، ومجموعة من مراسلاته [٤].

ثانيا : المعجزة في الإسلام :

يطلعنا تاريخ الأمم أن كل أمة جاء فيها رسول يدعي النبوة كانت تطلب منه برهانا على صدقه، ومن حقها أن تطلب منه هذا البرهان إن لم يحصل لها

---

(١) د / فؤاد زكريا : اسبينوزا ص ٣١ .

(٢) فردريك كوبلستون : تاريخ الفلسفة " الفلسفة الحديثة " المجلد الرابع ص٢٨٤.

(٣) د / فؤاد زكريا : اسبينوزا ص ٣١ ، ٣٢ .

(٤) فردريك كوبلستون:تاريخ الفلسفة " الفلسفة الحديثة " المجلد الرابع ص٢٨٤، ٢٨٥ .

العلم بنبوته عن طريق آخر، وذلك للتثبت من صحة نبوته ولكن دون شطط أو تعنت ويشهد لذلك قول النبي (ﷺ) " ما من نبي إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحي إلي، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة " (١) (٢).

فما من نبي إلا وقد أعطاه الله من الآيات والعلامات ما تدل على صدق دعوته ووجوب الإيمان به، والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تدل على تأييد الله سبحانه وتعالى أنبياءه بالمعجزات التي تدل على صدق دعواهم النبوة.

ولقد اهتم علماء العقيدة الإسلامية ببحث المعجزات، لما يترتب عليها من كونها برهان صدق النبي في دعواه، وبالتالي الإيمان بالشرائع، فتحدثوا عنها من حيث مفهومها، وشروطها، ووجه دلالتها على صدق النبي.

أولا: مفهوم المعجزة:

في اللغة : مأخوذة من العجز وهو نقيض الحزم، يقال عجز عن الأمر يعجز عجزا، وعجز فلان عن رأي فلان إذا نسبه إلى خلاف الحزم، فكأنه نسبه إلى العجز، فالمعجزة على وزن مفعلة (٣).

---

(١) الحديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت بجوامع الكلم (٢٦١/١٣) برقم (٧٢٧٤)، نشر دار الريان – القاهرة ، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس (١٣٣/١) برقم (١٥٢) نشر دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٢) عبد الرحمن حبنكة : العقيدة الإسلامية وأسسها ص٣٠٠ نشر دار القلم – دمشق – الطبعة الثامنة ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .

(٣) ابن منظور : لسان العرب . مادة (عجز) (٣٦٩/٥) نشر دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى .

وقيل مشتقة من العجز المقابل للقدرة، وحقيقة الإعجاز إثبات العجز، ثم أسند مجازا إلى ما هو سبب العجز، الذي هو الأمر الخارق، وجعل اسما له، فهو معجز، ثم زيدت التاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية، كما زيدت في الحقيقة، وقيل زيدت التاء في المعجزة للمبالغة، كما في العلامة (١).

وفي الاصطلاح : هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي وعدم المعارضة يظهره الله على يد مدعي النبوة والرسالة تصديقا له في دعواه (٢).

ويتبين من هذا التعريف أن المعجزة لا تكون معجزة إلا إذا كانت أمرا خارقا للعادة، والأمر هنا يشمل الفعل كانفجار الماء من بين الأصابع، والترك : كعدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام، والخارق للعادة أي المخالف للعادة والمألوف، ومعنى ذلك أن المعجزة إذا كانت تخالف العادة والمألوف فإنها لا تخالف العقل والإمكان، وأن تكون المعجزة من عند الله تعالى وحده قصد بها إظهار صدق من ادعى النبوة وتحدى بها المنكرين له ولم يستطيعوا معارضته.

ثانيا شروط المعجزة :

وضع علماء الكلام شروطا للمعجزة لابد من توافرها، حتى تدل المعجزة على صدق مدعي النبوة، وقد تمثلت فيما يلي :

الأول : أن تكون من فعل الله وخلقه أو ما يقوم مقام فعله، وذلك لأنها إنما تدل على صدق المدعي للنبوة من جهة نزولها منزلة التصديق بالقول من الله تعالى، وذلك كأن يقول النبي : معجزتي أن الذي أتحدى عليهم بالنبوة في وقتي هذا لو أرادوا القيام لما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وذلك عند تحققه معجزة ومن أعظم المعجزات.

الثاني: أن تكون خارقة للعاة إذ لا معجزة دون أن تكون خارقة للعادة.

---

(١) التفتازاني : شرح المقاصد (١١/٥) نشر عالم الكتب – لبنان – الطبعة الثانية ١٤١٩هـ .

(٢) راجع شرح المقاصد (١١/٥) ، والمواقف في علم الكلام للإيجي ص ٣٤٠ ، نشر عالم الكتب – بيروت – بدون .

الثالث : أن يتعذر معارضتها، فإن ذلك حقيقة الإعجاز، وذلك أنه لو أمكن معارضتها لأمكن للكاذب أن يدعي النبوة ويأتي بأمر يماثل ما أتى به الرسول.
الرابع : أن تكون ظاهرة على يد مدعي النبوة، ليعلم أنها تصديق له في دعواه.
الخامس : أن تكون موافقة لدعواه، فإن قال معجزتي أن أحيي ميتا ففعل خارقا آخر لم يدل على صدقه، لعدم تنزيله منزلة تصديق الله إياه.
السادس : أن لا يكون ما ادعاه وأظهره مكذبا له، فلو قال معجزتي أن ينطق الله يدي فلو نطقت يده قائلة إنه كاذب فيما يدعيه، لم يكن ذلك آية على صدقه بل على كذبه.
السابع : ألا تكون المعجزة متقدمة على الدعوى بل مقارنة لها، وذلك لو قال آية صدقي ما كان قد ظهر على يدي من الخارق، لا تدل على صدقه، لأنها إنما تدل على صدقه من حيث إنها نازلة منزلة التصديق،والخارق المتقدم لا يكون كذلك[١].
الثامن : وهو لبعض العلماء: وهو أن تكون المعجزة في زمان التكليف لأن ما يقع في الآخرة من الخوارق ليس بمعجزة، ولأن ما يظهر عند ظهور شرائط الساعة وانتهاء التكاليف لا يشهد بصدق الدعوى لكونه زمان نقض العادات وتغير الرسوم [٢].

---

(١) راجع : أبكار الأفكار للآمدي (٤ / ١٨ – ٢٢) تحقيق : د / أحمد المهدي – دار الكتب المصرية – الطبعة الثالثة ٢٠٠٩م ، والمواقف في علم الكلام للإيجي ص٣٣٩ ، ٣٤٠ ، والعقيدة النظامية للجويني ص٢١٨ ، ٢٢٤ ، تحقيق د/ محمد الزبيدي – دار النفائس – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ .
(٢) التفتازاني : شرح المقاصد (٥/١١) .

ثالثا : إمكان المعجزة :

إن العقل لا يحيل إمكان المعجزة، وذلك لأن استمرار الظواهر الطبيعية على نسقها المألوف الذي نراه ليس شيئا ضروريا يفرضه العقل فرضا، وإنما هو مما نسجته العادة وتكون الأسباب الجعلية، وما يلحق المعجزة من التعجب منها أو الاستنكار لها إنما هو بسبب غرابتها عن المشاهدة والمألوف [١]، ولا ينفي إمكانها قدح بعض المنكرين للنبوة فيها، لأن إبداعها ليس أبعد من إبداع خلق الأرض والسماء وما بينهما، والجزم بعدم وقوع بعضها كانقلاب الجبل ذهبا والبحر دهنا، والمدعي للنبوة شخصا آخر عليه ظهرت المعجزة لا ينافي الإمكان الذي هو طبيعتها [٢].

رابعا : وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول :

اتفق المتكلمون على أن المعجزة بمفهومها وشروطها، حسية كانت أو معنوية تدل على أن الذي جرت على يده هذه المعجزة رسول من عند الله صادق في دعواه، ولكنهم اختلفوا في وجه هذه الدلالة على ثلاثة آراء :

الأول : أنها عقلية :

وهذا الرأي للمعتزلة، فقد حكى عنهم صاحب المواقف أنهم قالوا : خلق المعجز على يد الكاذب ممتنع ؛ لأن فيه إيهام صدقه وهو إضلال قبيح من الله [٣].

وقد مال إلى هذا الرأي من الأشاعرة الأستاذ أبو إسحاق، فقد قال : إن خلق الله تعالى لهذا الخارق على وفق دعواه وتحديه مع العجز عن معارضته،

---

(١) د/ محمد سعيد البوطي: كبرى اليقينيات الكونية ص ١٧٥ دار الفكر – الطبعة السادسة – ١٣٩٩ هـ

(٢) التفتازاني : شرح المقاصد (٥ / ١٥ ، ١٦) .

(٣) الإيجي : المواقف ص ٣٤٣ .

وتخصيصه بذلك يدل على إرادة الله تعالى لتصديقه، كما يدل اختصاص الفعل بالوقت المعين والمحل المعين على إرادته تعالى لذلك بالضرورة (١).

الثاني : أنها عادية :

وإلى هذا الرأي ذهب الأشعري والقاضي الباقلاني والمحققون من أصحابه(٢)**، إذ يرون أن دلالة المعجزة على صدق الرسول ليست دلالة عقلية كدلالة الحدوث على المحدث، وإنما هي دلالة عادية، فقد قالوا : " إن خلق الله تعالى لهذا الخارق على هذا الوجه المفروض يدل على صدقه بالضرورة عادة "** (٣)**، وذلك لأنه قد جرت العادة بأن يخلق الله علما ضروريا عاديا لمن يشاهدها بصدق من ظهرت على يديه في دعواه النبوة.**

يقول الجويني : " اعلموا أرشدكم الله أن المعجزة لا تدل على صدق النبي حسب دلالة الأدلة العقلية على مدلولاتها، فإن الدليل العقلي يتعلق بمدلوله بعينه ولا يقدر في العقل وقوعه غير دال عليه، وليس كذلك سبيل المعجزات " (٤).

ويقول الإيجي : " في كيفية دلالة المعجزة، وهي عندنا إجراء الله عادته بخلق العلم بالصدق عقيبه " (٥).

---

(١) السنوسي:عقيدة أهل التوحيد الكبرى ص١٨٤ تحقيق د/محمد نصار، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

(٢) الآمدي : أبكار الأفكار ٤ / ٢٥ .

(٣) السنوسي : عقيدة أهل التوحيد الكبرى ص ١٨٥ .

(٤) الجويني:الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ص ٣٢٤،تحقيق:د/ محمد يوسف موسى، د / علي عبد المنعم عبد الحميد – نشر مكتبة الخانجي – مصر ١٩٥٠م .

(٥) الإيجي : المواقف ص ٣٤٢ .

الثالث : أنها وضعية :

يرى أصحاب هذا الرأي أن دلالة المعجزة على صدق الرسول دلالة وضعية، وذلك أن دلالة المعجزة على صدق الرسول كدلالة الألفاظ بالوضع على معانيها، فكما أن لفظ الإنسان يدل على معناه بسبب وضعه له، فكذلك المعجزة تدل على صدق النبي لوضعها له، لأنها بمنزلة قوله صدق عبدي في كل ما يبلغ عني (١).

تلك كانت أقوال علماء الكلام في وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول، وسواء كانت هذه الدلالة عقلية أو عادية أو وضعية، فإن المعجزة تفيد اليقين والعلم بصدق الذي ظهرت على يديه في دعواه النبوة وأنه رسول من عند الله، يشهد لذلك أن الذين آمنوا بالرسل وجدوا في أنفسهم علما ضروريا بأن ظهور هذا الأمر الخارق على أيديهم والذي لا يقدر عليه غير الله تعالى، دليل صدقهم في دعواهم وتأييد الله لهم بتلك الخوارق، ولا يقدح في ذلك التصديق اعتراضات البعض على هذه الدلالة، وذلك " لأن الاحتمالات العقلية لا تنافي حصول العلم القطعي كما في سائر العاديات، فنحن نقطع بحصول العلم بالصدق عقب ظهور المعجزة من غير التفات إلى هذه الاحتمالات " (٢).

---

(١) راجع أبكار الأفكار (٤ / ٢٥ ، ٢٦) ، وعقيدة أهل التوحيد الكبرى للسنوسي ص١٨٤ ، ١٨٥ .

(٢) التفتازاني : شرح المقاصد (٥ / ١٤ ، ١٥) .

المبحث الأول

اعتراضات اسبينوزا على المعجزة

إن الهدف الأساسي من هذا البحث –كما بينا في المقدمة – هو نقد تصور " اسبينوزا " للمعجزة والرد على اعتراضاته عليها،وحتى يتحقق ذلك،لابد أن نضع أيدينا أولا على هذا التصور وما ساقه على المعجزة من اعتراضات وانتقادات.

وذلك لأن النقد دون عرض الفكرة أو التصور هو كالبناء من غير أساس يكون واهيا لا يصمد أمام الأخذ والرد، فإذا ما كنا نريد نقدا قويا سليما، فلابد من عرض القضية كما تصورها صاحبها دون إخلال منا أو إسراف، حتى إذا ما خلصنا إليه كان سليما وموجها تتوافر فيه شروط النقد الصحيح من الموضوعية، والعقلانية، والأمانة.

إن هذا ما نسعى إليه في هذا البحث، ولهذا يتحتم علينا أن نبدأ بتوضيح المقصود بلفظ المعجزة عند اسبينوزا، ثم نتحدث ثانيا عن المحاور التي أقام عليها اسبينوزا اعتراضاته على المعجزة وأخيرا شكل هذه الاعتراضات. وقد مثلت هذه النقاط الثلاث موضوع المبحث الأول :

أولا : المقصود بالمعجزة عند اسبينوزا :

يبدأ اسبينوزا حديثه عن المعجزة مبينا أنها تعني في تصور العامة : "حوادث الطبيعة الخارقة للعادة والتي لا يمكن تفسيرها بالعلل الطبيعية " [(١)].

ويبين اسبينوزا السبب الذي جعل العامة يعتقدون أن هذه الحوادث معجزات يرجع أولا : أنهم اعتادوا تسمية كل عمل يجهلون علته عملا إلهيا، وثانيا : تصورهم لأشياء تعلو على نظام الطبيعة، ومنها قدرة الله سبحانه، والتي

---

(١) رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢١ ، ترجمة د/ حسن حنفي – نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب .

لا تظهر – في نظرهم – إلا عندما تخرق قوانين الطبيعة، أو حدوث شيء مناقض لما اعتادوا أن يتصوروه (١).

ويذكر اسبينوزا أن العامة يرون في المعجزات أوضح برهان على وجود الله تعالى – والتصديق بالنبوة – وأن الإيمان بها أمر ضروري للخلاص، ولذا فإن أية محاولة لتفسير هذه المعجزات بعللها الطبيعية المباشرة، ستعد في نظرهم إنكارا لوجود الله، وإسقاطا لعنايته (٢).

وهذا المعنى للمعجزة عند العامة يرى فيه اسبينوزا " أن العامة ينظرون إلى الله والطبيعة على أنهما طرفان متناقضان، بمعنى أنه إذا عمل الله تتوقف الطبيعة، وإذا عملت الطبيعة توقف الله، فكأن هناك قوتان متمايزتان متعارضتان: قوة الله، وقوة الطبيعة، والتي تخضع لقوة الله " (٣).

أما المقصود بهذه القوة أو تلك، والمقصود بالله، فإن العامة لا يعرفون شيئا سوى أنهم يتخيلون قدرة الله كقدرة الملك العظيم وقدرة الطبيعة كقوة غاشمة تخضع لقدرة الله (٤).

ويرى اسبينوزا أن أصل القول بالمعجزات – بهذا المعنى الخارق للعادة = يرجع إلى اليهود القدماء، وذلك أن اليهود عندما قصوا معجزاتهم كانوا يهدفون إلى إثبات أن الطبيعة كلها مسيرة لمصلحتهم وحدهم بأمر الإله الذي يعبدونه، وكذلك أيضا إقناع المعاصرين لهم من غير اليهود الذين يعبدون آلهة منظورة، ببطلان هذه الآلهة، لأنها تتغير، وهذا دليل ضعفها وخضوعها لإله غير منظور(٥).

لقد رفض اسبينوزا هذا المعنى للمعجزات، ورأى " أنه لا شيء يحدث في الطبيعة إلا وهو تبع لقوانينها المطردة، وأن هذه القوانين تسري على ما

---

(١) نفس المرجع والموضع .
(٢) نفس المرجع ص٢٢٣ .
(٣) د/ حسن حنفي : مقدمته لرسالة في اللاهوت والسياسة ص٦٥ .
(٤) اسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٢٢١ .
(٥) نفس المرجع ص٢٢١ ، ٢٢٢ .

يتصوره العقل الإلهي، وأن للطبيعة نظاما ثابتا لا يتغير، ولا يمكن خرق هذا النظام – بما يسمى المعجزات – لأن ذلك معناه إبطال هذا النظام وتعطل لقوانينه (١).

هذا هو المقصود بالمعجزات عند العامة كما حدده اسبينوزا، فما هو المقصود بلفظ المعجزة عنده ؟ يضع اسبينوزا عدة مبادئ على إثرها يحدد المقصود بلفظ المعجزة، وتتمثل في :

أولا : لا شيء يحدث في الطبيعة إلا واتبع قوانينها – أي لا يحدث شيء يناقض الطبيعة –.

ثانيا : أن القوانين الطبيعية تسري على ما يتصوره العقل الإلهي – أي أن الله لا يحدث شيئا إلا وفقا لهذه القوانين.

ثالثا : أن للطبيعة نظاما ثابتا لا يتغير (٢) – أي أنه لا يمكن خرق هذا النظام أو تصور انخرامه.

يقول اسبينوزا : " ويترتب على هذه المبادئ بوضوح تام أن لفظ المعجزة لا يمكن أن يفهم إلا في صلته بآراء الناس، ويعني مجرد عمل لا نستطيع أن نبين علته قياسا على شيء آخر معروف أو هو على الأقل عمل لا يمكن لراوي المعجزة أن يفسره " (٣).

ويقول : " وأستطيع أن أقول حقيقة أن المعجزة حادثة لا نستطيع أن نبين علتها اعتمادا على مبادئ الأشياء الطبيعية كما ندركها بالنور الفطري " (٤).

من الواضح واعتمادا على هذه النصوص أن المعجزة عند اسبينوزا هي مجرد عمل طبيعي له علته الطبيعية، ولكنه يتجاوز حدود الفهم الإنساني، ويتأكد ذلك المعنى بقول اسبينوزا " وأني لأتحدث في استنتاجي هذا عن

---

(١) اسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٣ .

(٢) نفس المرجع ص٢٢٣ .

(٣) نفس المرجع ص٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٤) اسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٤ .

المعجزة من حيث إن المقصود بها مجرد عمل يتجاوز حدود الفهم الإنساني أو نعتقد أنه كذلك" (١).

ويتأكد ذلك أيضا بأن تفسير اسبينوزا لمعجزات الكتاب المقدس قائم على هذا المعنى إذ يقول : " لا نستطيع تفسير المعجزة في الكتب المقدسة إلا بوصفها عملا للطبيعة يتجاوز حدود الفهم الإنساني أو نعتقد أنه كذلك " (٢).

هذا هو المقصود بالمعجزة عند اسبينوزا، أما معناها الخارق لنظام الطبيعة أو المناقض لقوانينها، هذا المعنى الذي تصوره العامة ممتنع عند اسبينوزا إذ يقول : " أما عندما نفترض أنها تخرق نظام الطبيعة أو تقضي عليه أو تناقض قوانينها، فإنها بهذا المعنى لن تقصر على أن تكون عاجزة عن إعطاء أية معرفة عن الله، بل تجعلنا

نشك في الله وفي كل شيء، وأني لا أعترف بأي فرق بين عمل مناقض للطبيعة وعمل خارق للطبيعة.. والمعجزة بهذا المعنى المناقض للطبيعة هي امتناع محض"(٣).

والسؤال الذي يترتب على معنى المعجزة عند اسبينوزا، هو إذا كانت المعجزة عنده تعني مجرد عمل طبيعي يتجاوز حدود الفهم الإنساني، فما الذي تبقى من المعجزة ؟ وعلى أي شيء نطلق لفظ المعجزة والتي في حقيقتها تقوم على خرق نظام الطبيعة وتناقض قوانينها.

من الواضح أن المعجزة سواء أكانت عملا إلهيا مناقضا للطبيعة، أم كانت عملا يتجاوز حدود الفهم الإنساني، فإنها على كلا المعنيين لا وجود لها عند اسبينوزا، والقول بها هو نتيجة الجهل والخرافة، وهذا واضح من رد اسبينوزا على خطاب " ألد نبورغ " والذي طلب فيه إيضاح بعض الفقرات في رسالة اللاهوت والسياسة التي تؤدي إلى هدم سلطة وقيمة المعجزات والتي هي

---

(١) نفس المرجع ص ٢٢٧ .

(٢) نفس المرجع والموضع .

(٣) اسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٧ .

الأصل الوحيد لثبوت الوحي الإلهي ([1])، إذ يقول : " وأما عن المعجزات فأنا واثق أنه يمكن تأسيس صدق الوحى الإلهى على حكمة التعاليم الإلهية فحسب لا على الخوارق، أى على الجهل كما أوضحت ذلك بإسهاب في الفصل السادس حول المعجزات، بقى أن أضيف هنا أن الفرق الرئيسى الذى أضعه بين الدين والخرافة، يتمثل فى كون الخرافة تقوم على الجهل والدين على الحكمة"([2])

ثانيا : محاور الاعتراضات :

من خلال النظر في المقصود بالمعجزة عند اسبينوزا يمكن لنا تحديد المنطلقات التي انطلق منها في اعتراضاته على المعجزة، وقد تمثلت هذه المنطلقات في اثنين : الأول : مبدأ الحتمية، والثاني : في المساواة بين الله والطبيعة.

ويمكن القول بأن اعتراضات اسبينوزا في مجملها تعود إلى هذين المبدأين، ولهذا رأينا قبل أن نتحدث عن هذه الاعتراضات، أن نقدم صورة موجزة عن هذين المبدأين في فلسفته.

---

(١) مبادئ فلسفة ديكارت " مراسلات " رسالة رقم ٧١ ص ٤٧٤ ترجمة جلال الدين سعيد – المركز القومى للترجمة – تونس ٢٠١٥ .

(٢) مبادئ فلسفة ديكارت " مراسلات " رسالة رقم ٧٣ ص ٤٥١.

الأول : مبدأ الحتمية :

لقد ظهرت فلسفة اسبينوزا في تلك الفترة التي احتضنت المراحل الأولى للعلم الحديث، وهي تحديدا تلك الفترة التي ظهر فيها مفهوم الحتمية بوصفه إنموذجا فرض نفسه على كل معرفة علمية. والذي يعني أن الكون إذا ما نظرنا إليه في ذاته دون إقحام لأية علل خارجية عنه، يكون منتظما خاضعا لقوانين مستمدة منه ومعبرة عنه، وأن ظواهره لا تحدث بمحض الصدفة والاتفاق، وإنما ينبغي أن تكون لها عللها الطبيعية التي تفسرها، وأنه حتى في الحالات التي لا يستطيع فيها العلم أن يحدد هذه العلة لأي سبب من الأسباب فإنه ينبغي أن نعترف بضرورة وجود هذه العلة، وبضرورة وجود القانون الذي يحكم العلاقة بين الظواهر وعللها (١).

فالحتمية هي ذلك المبدأ القائل بسيادة الضرورة في الكون، وأنه خاضع لنظام حتمي صارم يجعل ما يصدق عليه هنا يصدق عليه هناك، وما يصدق الآن يصدق في كل زمان، وأن قوانينه في إطراد دائم وبصفة أزلية.

واسبينوزا كان مؤمنا بهذا المبدأ إيمانا مطلقا، وفعل الكثير من أجل نشره في وقت كانت فيه الفكرة المضادة – فكرة العشوائية، والاتفاق، والحرية، والغائية – هي المسيطرة على الأذهان (٢).

فكل شيء تبعا لـ " اسبينوزا " تحكمه ضرورة منطقية، وليس ثمة شيء من قبيل الإرادة الحرة في المجال العقلي أو الصدفة في العالم المادي، ومن المستحيل منطقيا أن تكون الأحداث على غير ما هي عليه(٣)، فالأشياء كلها

---

(١) انظر : مفهوم مبدأ الحتمية في المعجم الفلسفي (٤٤٣/١) جميل صليبا – نشر الشركة العالمية للكتاب – الطبعة الأولى ١٩٩٤م ، والموسوعة الفلسفية المختصرة ص١٨١ ترجمة : فؤاد كامل وآخرون – دار العلم – بيروت .

(٢) فؤاد زكريا : اسبينوزا ص ٨٧ .

(٣) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية – الفلسفة الحديثة ص١١٣ .

محدودة بضرورة الطبيعة الإلهية كي توجد وتعمل على نحو ما، وأنه لم يكن بالإمكان أن ينتج الله الأشياء بطريقة أخرى وبنظام آخر غير الطريقة والنظام اللذين نتجت بهما"(١)

يقول اسبينوزا : " إن كل ما يحدث إنما يحدث وفق نظام أزلي ووفق قوانين طبيعية محددة " (٢).

وتظهر مسألة الحتمية بوصفها الأساس الذي تستند عليه فلسفة اسبينوزا بجانب توحيده بين الله والطبيعة في مجموعها الكلي في كتابه الأخلاق " إذ يتحدث فيه بمزيد من التفصيل عن مبدأ سيادة الضرورة في الكون، فوصف هذا المبدأ بأنه هو الطريقة التي ينبغي أن ينظر بها العقل البشري – إذا أحسن استخدامه بالطبع – إلى الأشياء قائلا :" ليس من طبيعة العقل أن ينظر إلى الأشياء على أنها عرضية وإنما على أنها ضرورية، فطبيعة العقل أن ينظر إلى الأشياء من منظور الأزلية " وهذا يعني أن نظر العقل إلى الأشياء من منظور الأزلية مرتبط بتحكم الضرورة"(٣).

فلا شيء في هذا الكون – من منظور اسبينوزا – يكون عرضيا، بل إن كل الظواهر تسير وتعمل طبقا لقوانين ضرورية ثابتة لا تتغير، لأنها مستمدة من ضرورة الطبيعة الإلهية.

يقول اسبينوزا : " أن كل شيء موجود يوجد من خلال الإله، ولما كان الإله موجودا وجودا ضروريا وليس عرضيا فإنه بالضرورة سوف تكون الأحوال التي تتبع الطبيعة الإلهية موجودة بالضرورة أيضا، وذلك لأنه من المستحيل وغير العرضي أن تقوم تلك الأحوال بتوجيه نفسها، بل على العكس إذا كانت

---

(١) فردريك كوبلستون : تاريخ الفلسفة الغربية من ديكارت إلى ليبنتز ص٣٠٢ .

(٢) رسالة في إصلاح العقل ص ٣٠ ، ترجمة : جلال الدين سعيد – نشر دار الجنوب – تونس – بدون .

(٣) د / فؤاد زكريا : اسبينوزا ص ٨٨ .

موجهة من الإله فمن المستحيل وغير العرضي أن تصير نفسها غير موجهة، إذ أن كل الأشياء موجهة من خلال ضرورة الطبيعة الإلهية "[١]. فكل ما يحدث في الطبيعة إلا واتبع قوانينها وهذه القوانين تسري على كل ما يتصوره العقل الإلهي [٢].

واسبينوزا يربط بين الطبيعة الإلهية وبين الضرورة تأكيدا منه أن الحتمية كما تسري على الظواهر الطبيعية تسري كذلك على الأفعال الإلهية، فالإله لا يستطيع أن يفعل غير ما فعل، فكل شيء بما فيه الإله يسير تبعا لنظام وقوانين لا تنصرم، وهذا واضح من تعريف اسبينوزا للشيء الحر والشيء المرغم أو المجبر، " فالأول : هو الشيء الذي وجد لضرورة طبيعته وحدها، وفعله تحدد بذاته وحدها

أما الشيء الضروري أو المجبر فهو الذي يدفعه شيء آخر إلى أن يوجد بنحو معين ومحدد " [٣].

ولا يعني قول اسبينوزا بالحتمية في ظواهر الطبيعة، وجود قوة ترغم الظواهر على السير في طريق معين، بل إن ما تفترضه هو أن مجرى هذه الظواهر إذا ما نظر إليه في ذاته دون إقحام لأية علل خارجية فيه يكون منتظما خاضعا لقوانين مستمدة منه ومعبرة عنه، وأن الظواهر الضرورية لا تحدث خبط عشواء، بل ينبغي أن تكون لها علل تفسرها " [٤].

---

(١) زيد عباس كريم – اسبينوزا وفلسفته الأخلاقية – ص ١٥٢

(٢) اسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٣ .

(٣) اسبينوزا – الأخلاق – ص ٣٠ .

(٤) د/ فؤاد زكريا : اسبينوزا ص ٨٦ .

فلا توجد في رأي اسبينوزا قوى خارجية تتحكم في الأشياء الموجودة في العالم، وأن ظواهر الطبيعة ينبغي أن تفسر بقواها الخاصة فقط، وأنه من الواجب البحث عن علل طبيعية فقط لكل ما يحدث في الكون (١).

وفي رفض اسبينوزا للغائية ونقده لها تأكيد واضح على مبدأ الحتمية، إذ يرى اسبينوزا أن أخطاء الناس كلها ترتد إلى خطأ أساسي واحد وتنطلق من فكرة " هى أنهم يفترضون عموما أن جميع الأشياء تتصرف مثلهم من أجل غاية بل أنهم يقولون بأن الله قد سخر كل شئ من أجل الإنسان وأنه خلق الإنسان ليعبده "(٢) ولكن ليس للطبيعة أى غاية محدده مسبقة، وأن جميع العلل الغائية لا تعدو أن تكون مجرد أوهام بشرية، ذلك لأن الكائن الأزلي اللامتناهي، الذي نسميه الله أو الطبيعة يسلك وفقا لنفس الضرورة التي يوجد بها أي أن السبب أو العلة التي تجعل الله أو الطبيعة موجودا والسبب الذي يجعله يسلك هو سبب واحد، وليس لوجوده وفعله أمل ولا غاية، ومن ثم فإن العلة التي تسمى غائية ليست إلا الرغبة البشرية بقدر ما تعد أصلا أو علة لأي شيء " (٣).

إن الحتمية في رأي اسبينوزا شاملة لكل ما في الكون، لأفعال الإله، ولظواهر الطبيعة، وللإنسان، وبهذه الحتمية يستبعد اسبينوزا بل ويرفض إمكان المعجزة أو حدوثها لأن هذا يعني الاعتقاد بعدم سيادة الضرورة في الكون، وبأن القوانين الطبيعية يمكن خرقها، وهذا ما لا يقبله اسبينوزا، ويصر عليه في رسالة اللاهوت والسياسة وفي الأخلاق، وفي جميع مؤلفاته.

---

(١) المرجع السابق ص ٨٦ .

(٢) اسبينوزا : الأخلاق ص ٧٦ .

(٣) اسبينوزا : الأخلاق ص ٧٩ ، د / فؤاد زكريا : اسبينوزا ص ٩١

ثانيا : التوحيد بين الله والطبيعة :

يمكن القول بأن الفكرة الأساسية التي تقوم عليها فلسفة اسبينوزا الميتافيزيقية البارزة للعيان واللافتة للنظر هي أنه لا يوجد سوى جوهر واحد، هو الجوهر الإلهي اللامتناهي الذي يتوحد بالطبيعة (١).

وقد مثلت هذه الفكرة منطلقا أساسيا في رفض اسبينوزا للمعجزة، وعليها أقام اعتراضاته، فاسبينوزا " لا يتصور الإله بوصفه كائنا يعلو على الطبيعة أو متحكم فيها وهو منفصل عنها، أو موجه لها نحو غاية تفهم على مثال غايات الإنسان، بل إن كل فكرة لدينا عن مثل هذا الكائن ينبغي أن ترد – حسب اسبينوزا – إلى مجموع الطبيعة في ذاتها " (٢).

فالإله والطبيعة في نظر اسبينوزا شيء واحد، يتأكد ذلك بتصريحه في رسالته إلى " هنري أولد نبورغ " بأنه يعتقد رأيا عن الإله والطبيعة يختلف كل الاختلاف عن الرأي الذي يدافع عنه المسيحيون إذ يقول : " أعتقد أن الله هو العلة المحايثة للأشياء جميعا لا العلة المتعدية " ويقول : وأنا أقول إن كثيرا من الصفات التي يرون ويرى جميع الآخرين الذين أعرفهم على الأقل أنها من صفات الإله أرى أنها أشياء مخلوقة، ومن ناحية أخرى فإن الأشياء التي يرون أنها مخلوقة بسبب تحيزاتهم أرى أنها من صفات الإله ولكنهم يسيئون فهمها، وكذلك لا أستطيع أن أفصل الإله عن الطبيعة على الإطلاق " (٣).

إن الإله في رأي اسبينوزا كما هو واضح من رسالته هو ذلك الذي يتوحد فيه الإله بالطبيعة، فالله هو الطبيعة، والطبيعة في مجموعها الكلي هي الله، وعلى هذا الرأي يرفض اسبينوزا مفهوم الإله في الأديان من حيث كونه جوهرا لا متناه عال عن الطبيعة مفارق لها، يفعل أفعاله فيها بإرادة حرة.

---

(١) فردريك كوبلستون : تاريخ الفلسفة " الفلسفة الحديثة " المجلد الرابع ص٢٨٥ .

(٢) د / فؤاد زكريا : اسبينوزا ص ١٤١ .

(٣) د / زيد عباس كريم : اسبينوزا وفلسفته الأخلاقية ص ١٤٧ .

ولذلك وضع اسبينوزا تعريفا لفكرة الإله ضمن التعريفات الأولى في كتابه الأخلاق وذلك على غير المألوف والعادة لدى الفلاسفة وذلك لأن اللفظ في نظرهم مفهوم بذاته ولا حاجة فيه إلى تعريفات توضح معناه، أما كونه فعل ذلك فهذا يعني أن فكرة الإله عنده لها مفهومها الخاص به، ذلك الذي يسوي فيه بين الجوهر، والله، والطبيعة، وربط هذه المفاهيم باعتبارها معلولة بذاتها (١).

ويتضح التوحيد بين الله والطبيعة في فلسفة اسبينوزا عبر الأمور التالية :

أولا : إن مجرد تصور الجوهر يجعلنا نعتقد أنه لا شيء في الطبيعة يمكن أن نطلق عليه لفظ الجوهر إلا الله.

فالجوهر حسب تعريف اسبينوزا " ما يوجد في ذاته ويتصور بذاته، أي ما لا يتوقف تصوره على تصور شيء آخر (٢).

وبالنظر في هذا التعريف مع ربطه بالقضية الخامسة التي تقول " لا يوجد في الكون جوهرين أو أكثر لهما الطبيعة نفسها "(٣)، ثم بالإضافة إلى تصور تعريف الإله بأنه " كائن مطلق لا متناهي، أي جوهر مؤلف من صفات لا نهائية، كل واحدة منها تعبر عن ماهية أزلية"(٤) مع ربطه بالقضية الرابعة عشر والتي تقول : " لا يمكن أن يوجد أي جوهر خارج الإله ولا أن يتصور " (٥).

وبالجمع بين كل من التصورين الأول الذي يضم التعريف الثالث – الجوهر– مع القضية الخامسة النافية لوجود أكثر من جوهرين في الطبيعة، مع التصور الثاني الذي يضم تعريف الإله مع القضية الرابعة عشر النافية لوجود

---

(١) راجع : الأخلاق :ل " اسبينوزا " ص٣٠ ، واسبينوزا :د / فؤاد زكريا : ص ١١٧ .
(٢) اسبينوزا : الأخلاق ص ٣٠ .
(٣) اسبينوزا : الأخلاق – ص ٣٣ .
(٤) نفسه ص ٣٠ .
(٥) نفسه ص ٤٥ .

جوهر أو تصوره خارج الإله، ينتج أنه لا يوجد جوهر ما عدا الإله أو الطبيعة " (١).

يقول اسبينوزا : " ويترتب على ذلك بوضوح أنه لا يوجد في الطبيعة سوى جوهر واحد وأن هذا الجوهر غير متناه إطلاقا " (٢).

ثانيا : إضافة صفات للإله هي من خواص صفات الطبيعة ولا تنطبق إلا على الطبيعة، ومنها صفة الامتداد.

فقد أرجع اسبينوزا كما فعل ديكارت جميع خواص المادة إلى الامتداد لكن الامتداد عنده ليس جوهرا، بل هو صفة من صفات الجوهر الأوحد أي الله (٣).

يقول اسبينوزا :" أعني بالجسم ذلك الحال الذي يعبر على نحو محدد عن ماهية الله بقدر ما يعد شيئا ممتدا "،ويقول:"إن الجوهر الممتد هو إحدى صفات الإله اللامتناهية " (٤).

ثالثا : الإله لا يعتمد على سبب آخر خارجا عنه، بل يحمل سببيته في ذاته، وهذه نفس فكرة اسبينوزا عن الطبيعة الطابعة والمطبوعة.

يقول اسبينوزا : " إن ما ينبغي فهمه بالطبيعة الطابعة هو ما يكون في ذاته ومتصورا بذاته، أعني صفات الجوهر تلك التي تعبر عن ماهية أزلية لا متناهية، أو الإله من جهة اعتباره علة حرة، وبالطبيعة المطبوعة:كل ما ينتج عن ضرورة الطبيعة الإلهية، أوأي صفة من صفات الإله، وأعني بها أيضا كل أحوال

---

(١) د/ علي عبد المعطي محمد : تيارات فلسفية حديثة ص١٤٩ نشر دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية طبعة ١٩٩٤م .

(٢) الأخلاق ص ٤٦ .

(٣) بول جانيه : جبريل سياي : مشكلات ما بعد الطبيعة ص١١٦ .

(٤) الأخلاق ص ٤٧ .

صفات الإله باعتبارها أشياء موجودة في الإله ولا يمكن أن توجد ولا تتصور من دونه"[١]

فالإله هو الطبيعة الطابعة من حيث هو مصدر الصفات والأحوال وهو الطبيعة المطبوعة من حيث هو الصفات والأحوال نفسها [٢].

يقول اسبينوزا : " وأني أعتقد أن الإله هو السبب الجوهري لكل الأشياء، و إن كان ذلك بطريقه أخرى أن كل الأشياء توجد و تتحرك فى الله وبهذا أتفق مع القديس بولس ومع كل الفلاسفة القدماء " [٣].

تلك كانت بعض الأمور التي تبين التوحيد بين الله والطبيعة في فلسفة اسبينوزا، وعلى هذا الأساس يشرح اسبينوزا أهم المفاهيم التي توحي بتدخل خارجي في الطبيعة في اللاهوت التقليدي، فحكم الله هو نظام الطبيعة الثابت الذي لا يتغير، وعون الله هو ما تقدمه الطبيعة للإنسان دون جهد منه، وأوامر الله وإرادته هي قوانين الطبيعة الثابتة [٤].

وإذا كان لا تمايز بين الله والطبيعة وجوديا، فالطبيعة هي الله والله هو الطبيعة، وأوامر الله وإرادته هي قوانين الطبيعة الضرورية وحكم الله هو نظام الطبيعة، فلا مجال في رأي اسبينوزا للقـول بإمكان المعجزات أو وقوعها، لأن معنى ذلك أن الله يعمل ضد طبيعته وهو محال عقلا، وعلى هذا الأساس بجانب مبدأ الحتمية أقام اسبينوزا اعتراضاته على المعجزة.

---

(١) الأخلاق ص ٦٧ .

(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١١١ .

(٣) مبادئ فلسفة ديكارت " مراسلات " رسالة رقم ٧٣ ص ٤٥١.

(٤) د / حسن حنفي : مقدمته لرسالة في اللاهوت والسياسة ص ٦٧ .

ثالثا : اعتراضات اسبينوزا على المعجزة :

لقد مثل مبدأ الحتمية مع التوحيد بين الله والطبيعة الأساس الذي أقام عليه اسبينوزا اعتراضاته على المعجزة وبالتالي رفضها، ونفي إمكانها أو حدوثها.

ونحن نحاول هنا أن نقدم صورة هذه الاعتراضات كما صورها اسبينوزا في رسالته في اللاهوت والسياسة، حتى نتمكن من نقدها كل على حده، وقد تمثلت فيما يلي :

?لاعتر? ? ?لأ?? : حد? ? ?لمعجز? ? هو ?نتها ? لقو?نين ?لطبيعة ?لمطر?? ?لنظامها ?لثابت?لذ ? لا يتغ ?، ?بالتا ? فلا يمكن تصو??مكا??لمعجز??? حد?ثها ذ??لمع ?.

وقد أقام اسبينوزا هذا الاعتراض على مبدأ الحتمية والذي يعني سيادة الضرورة في أفعال الطبيعة إذ يقول : " إنه لا يحدث شيء إلا وفقا لقواعد وقوانين تتضمن ضرورة أزلية، فالطبيعة تسير دائما وفقا لقوانين وقواعد تنطوي على ضرورة وحقيقة أزليتين، حتى وإن لم نكن نعرفها كلها، وبالتالي فهي تتبع نظاما ثابتا لا يتغير " (١).

وإذا كان نظام الطبيعة ثابتا وقوانينها لا تنخرم فلا مجال للقول بإمكان المعجزة والتي تقوم حقيقتها على انخرام النظام الكوني وخرق القوانين الطبيعية.

يقول اسبينوزا : " ليس هناك سبب معقول يدعو لأن ننسب إلى الطبيعة قوة محدودة، أو نعتقد بأن قوانينها لا تنطبق إلا على أشياء معينة فقط، لا على كل الأشياء.. بل إن من الواجب أن نعتقد بأن قدرة الطبيعة لا نهائية، وأن قوانينها من الاتساع بحيث تسري على كل ما يتصوره العقل الإلهي " (٢).

---

(١) اسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٢٢٣ .

(٢) نفس المرجع والموضع .

وإذا كانت القوانين الطبيعية تسري على ما يتصوره العقل الإلهي وما يتصوره ثابت وضروري، فإن هذه القوانين ضرورية وأزلية، وبالتالي لا يمكن خرقها بالمعجزات.

ويرى اسبينوزا أنه لو تصورنا أن الطبيعة يمكن خرق نظامها عن طريق المعجزات لكان معنى ذلك أن الله خلق طبيعة عاجزة وسن قوانين عقيمة إلى حد يضطر معه دائما إلى مساعدتها لكي تظل باقية وتظل الأشياء تسير حسب رغبته، وهذا الاعتقاد مناقض للعقل (١).

من الواضح أن اسبينوزا يرى مضادة بين نظام الطبيعة وقوانينها وبين المعجزات، فالمعجزات في نظره ما هي إلا إبطال لهذه القوانين وخرق لنظام الطبيعة الثابت، ولهذا " يقرر أنه لا يمكن أن تحدث فيه أي معجزات وأنها لم تقع أبدا، ولسنا في حاجة إلى وجودها " (٢).

?لاعتر؟ ??لثا ? : حد؟ ??لمعجز؟ ? يتناقض مع طبيعة ? لله ???مر؟ ?لإ ?يةـ يرى اسبينوزا أنه لا يمكن تصور حدوث المعجزات بمعناها الخارق لقوانين الطبيعة، لأن معنى ذلك أن الإله يعمل ضد طبيعته، لأن القوانين الطبيعية هي طبيعة الإله، وهذا مستحيل، وبالتالي فلا مجال لحدوث المعجزات.

وقد بنى اسبينوزا هذا الاعتراض على التوحيد بين الله والطبيعة، فالله هو الطبيعة، والطبيعة هي الله.. يقول اسبينوزا : " إن كل ما يريده الله يتضمن حقيقة وضرورة أبديتين، وذلك لأن عقل الله وإرادته شيء واحد، وأنه لا فرق بين قولنا إن الله يريد شيئا ما، وقولنا إنه يتصور شيئا ما، فإن نفس الضرورة التي تجعل الله وفقا لطبيعته يتصور شيئا على ما هو عليه تجعله يريده على ما هو عليه، ولما كان أي شيء لا يكون حقيقيا بالضرورة إلا بأمر الله، فإنه يترتب

---

(١) نفس المرجع والموضع .

(٢) د / محمد علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي – الفلسفة الحديثة – الجزء الرابع ص١١٩ نشر دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية ١٩٩٦م .

على ذلك بوضوح تام أن القوانين العامة للطبيعة ليست إلا مجرد أوامر إلهية تصدر عن ضرورة الطبيعة الإلهية، فلو حدث شيء في الطبيعة يناقض قوانينها كان هذا الشيء مناقضا لأمر الله وعقله وطبيعته، ولو فعل الله شيئا يناقض قوانين الطبيعة –كالمعجزات – فإنه يعمل ضد طبيعته " (١).

من الواضح في هذا النص أن اسبينوزا ينظر إلى القوانين الطبيعية على أنها هي إرادة الله وقدرته " فقدرة الطبيعة هي نفسها قدرة الله وصفته المميزة، وقدرة الله هي ذاتها ماهيته " (٢)، وهذه النظرة تتعارض مع تصور العامة لقدرة الإله وإرادته، حيث تنظر إلى إرادته على أنها تكشف عن نفسها وعن قدرته تعالى في خرق قوانين الطبيعة عن طريق المعجزة، لكن الله في نظر اسبينوزا يكشف عن إرادته في ثبات قوانين الطبيعة وإطرادها لا في خرقها أو توقفها، لأن قوانين الطبيعة هي طبيعة الله نفسه، ومن التناقض أن نذهب إلى أن الله يناقض طبيعته ويجعلها تتوقف، حتى تحدث المعجزة.

---

(١) رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٣ .

?لاعتر? ??لثالث : ?لمعجز? ? لا تثبت ?جو? ? لله ?لا تكشف عن ماهيته ?لا عنايته.

يرى اسبينوزا أن المعجزات لا تنهض دليلا على وجود الله كما يعتقد العامة، ولا تثبت عنايته كذلك، بل إنها تؤدي إلى الشك في وجوده، إن لم تؤد إلى الإلحاد.

وقد أشار اسبينوزا إلى هذا الاعتراض في تعليقه السادس من مقدمته لكتاب " مبادئ فلسفة ديكارت " إذ يرى استحالة خرق قوانين الطبيعة الأبدية، وإلا وقعنا في تناقض عندما نثبت الله والمعجزة في نفس الوقت، لأن إثبات المعجزة يعني استحالة وجود الله (١).

وقد بنى اسبينوزا هذا الاعتراض على فكرة الأفكار الواضحة والتي هي معيار الحقيقة عنده والتي أخذها من ديكارت (٢) " وكتابه الأخلاق ما هو إلا تطبيق واضح لهذه الفكرة، حتى في شكله الظاهري " (٣).

لقد قابل اسبينوزا بين المعجزة وبين الله من حيث فكرة الأفكار الواضحة، ورأى أنه إذا كانت المعجزات لا تفسر بالعلل الطبيعية لأنها خارقة لنظام الطبيعة، فهي فكرة غير واضحة، ولا تصلح دليلا لإثبات وجود الله، لأن الله غير واضح بذاته، ونحن في حاجة للأفكار الواضحة حتى نثبت وجوده.

يقول اسبينوزا : " لما كان وجود الله غير معروف بذاته فمن الواجب استنتاجه من أفكار تبلغ من الوضوح والثبات حدا لا يمكن معه وجود قوة قادرة على تغيرها... فيجب منذ اللحظة التي نستنتج فيها وجود الله من هذه الأفكار

---

(١) د / حسن حنفي : هامش رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٤ .

(٢) راجع : التأملات في الفلسفة الأولى لديكارت ص ٩٦ وما بعدها ، ترجمة عثمان أمين – نشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥١م – الطبعة الأولى ، ومقال عن المنهج ص٧٥ ترجمة د/ محمود الخضيري ، كلية الآداب – جامعة عين شمس – بدون .

(٣) بول جانيه : جبريل سياي : مشكلات ما بعد الطبيعة ص ٦١ .

أن تظهر لنا على نحو من الثبـات والرسوخ، وذلك لو أردنا ألا يتطرق أي شك إلى استنتاجنا، أما لو استطعنا أن نتصور قوة ما أيا كانت قد غيرت هذه الأفكار فإننا نشك عندئذ في صحتها، وبذلك نشك في استنتاجنا، أي في وجود الله"(١).

ويقول : " فلكي يمكننا تصور طبيعة الله بوضوح وتميز يتحتم علينا أن نلجأ إلى بعض الأفكار السهلة للغاية التي نسميها الأفكار الشائعة حتى نلحق بها ما يخص الطبيعة الإلهية، حينئذ يتضح لنا أن الله موجود بالضرورة " (٢).

وما دامت المعجزة سواء أكان لها علل طبيعية تفسرها أم لم يكن لها علل، فهي عمل يتجاوز حدود الفهم الإنساني، وبالتالي فهي غامضة، ولذا فهي لا تصلح طريقا لإثبات وجود الله.

يقول اسبينوزا: " فلنفترض أن المعجزة هي ما لا يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية، وهذا التعريف يفيد معنيان : الأول : أن يكون لهذا الشيء علل طبيعية، ولكن يستحيل على الذهن الإنساني البحث عنها، الثاني : ألا تكون له علة سوى إرادة الله، ولما كان كل ما يحدث بالعلل الطبيعية يحدث أيضا بإرادة الله وقدرته، تحتم علينا أن نخلص من ذلك إلى القول بأن المعجزة سواء أكانت لها علل طبيعية أم لم يكن، عمل يتجاوز حدود الفهم الإنساني، ولذلك لا نستطيع عن طريق المعجزة معرفة ماهية الله أو وجوده أو أي شيء آخر يتعلق بالله والطبيعة " (٣).

ويلجأ اسبينوزا إلى الكتاب المقدس يستمد منه ما يعاضد اعتراضه على المعجزات من أنها لا تؤدي إلى إثبات وجود الله وعنايته، وأنها قد تؤدي إلى عبادة آلهة باطلة، والشك في وجوده.

---

(١) رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٥ .

(٢) مبادئ فلسفة ديكارت هامش رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٥ .

(٣) رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٦ .

ومن ذلك أولا : ما يذكره الكتاب المقدس أن أدعياء النبوة يستطيعون إجراء المعجزات وهذا واضح من وصية موسى عندما حكم بالإعدام على متنبئ بالرغم مما يجريه من معجزات إذ يقول : " ولو تمت الآية أو المعجزة التي كلمك عنها.. إلخ، فلا تسمع كلام هذا المتنبئ.. إلخ، فإن الرب إلهكم ممتحنكم.. إلخ وذلك المتنبي يقتل " (١).

يقول اسبينوزا : " ومن ذلك يظهر بوضوح أن مدعي النبوة يستطيعون بدورهم إجراء معجزات، وأن الناس إن لم تعصمهم معرفة الله الصحيحة وحب الله يمكنهم عن طريق المعجزات أن يعبدوا آلهة باطلة بنفس السهولة التي يعبدون بها الإله الحق " (٢).

ثانيا : أن المعجزات لم تمنع بعض أنبياء بني إسرائيل من الشك في وجود الله وعنايته، فقد شك سليمان ذاته في أن يكون كل شيء وليد الصدفة " (٣).

وقد شك آساف (٤) في عناية الله بالرغم من المعجزات العديدة التي سمع بها وكاد يحيد عن الطريق المستقيم (٥).

---

(١) التثنية : اصحاح ١٣ – الفقرات من (٢ : ٥) الكتاب المقدس .

(٢) رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٨ .

(٣) النص في سفر الجامعة كل يصاب بكل وحادث واحد للصديق والمنافق ، للطاهر وللنجس، للذبائح ولغير الذبائح ، مثل الصالح مثل الخاطئ والذي يحلف كالذي يتقي الحلف ، وشر ما يجري تحت الشمس أن حادثا واحدا للجميع ، فتمتلئ قلوب بني البشر من الخبث وصدورهم من الجنون في حياتهم وفيما بعد يصيرون إلى الأموات . اصحاح ٩ ، الفقرتان ٢ ، ٣ .

(٤) أساف : أحد الأشخاص الثلاثة الذين يعز إليهم كاتب سفري أخبار الأيام الفرق الغنائية الأربع والعشرون في المعبد ، وفي الإصحاح الثالث من المزامير ينسب إليهم إحدى عشرة فرقة فقط . د/ حسن حنفي هامش رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٨ .

(٥) اسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٢٢٨ .

ثالثا : أنه بالرغم من كثرة معجزات بني إسرائيل إلا أنهم مع ذلك لم يستطيعوا أن يكونوا فكرة صحيحة عن الله، وهذا ما تشهد به التجربة، إذ أنهم لما اعتقدوا أن موسى قد رحل طلبوا من هارون آلهة مرئية، وكانت فكرتهم عن الله التي كونوها عن طريق كل هذه المعجزات تتمثل – ويا للعار – في عجل " (١).

إن المعجزات – في نظر اسبينوزا – لا يمكن أن تؤدي إلى إثبات وجود الله ولا تعطي معرفة صحيحة عنه، ولا تدل بوضوح كاف على العناية الإلهية، وهذا ما أثبته الكتاب المقدس (٢)**، ولذا فنحن لسنا في حاجة إلى هذه المعجزات التي تخرق النظام العام للطبيعة، ذلك النظام الثابت الذي لا يتغير هو الذي يدل على وجود الله ويقودنا إلى المعرفة الحقة، لا المعجزات التي هي والجهل مترادفين، هذا ما يقوله اسبينوزا في رده على خطاب ألد نبورغ، إذ يقول : " لقد اعتبرت أن الإيمان بالمعجزات والجهل كشيئين مترادفين على أساس أن أولئك الذين يدعون إثبات وجود الله وإثبات الدين عن طريق المعجزات يستدلون على شيء غامض بشيء أكثر غموضا وهم به جاهلون إلى أقصى درجة "** (٣).

تلك كانت أقوال اسبينوزا في اعتراضه على المعجزات، من أنها لا تدل على وجود الله، ويمكن إجمالها فيما يلي :

أولا : المعجزات باعتبارها عملا يتجاوز حدود الفهم الإنساني، لا يمكن أن تؤدي إلى معرفة الله، لأنها بهذا المعنى تفقد صفتي الوضوح والتميز، ومعرفة الله لا تتم إلا بالأفكار الواضحة المتميزة.

---

(١) نفس المرجع والموضع .

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٩ .

(٣) مبادئ فلسفة ديكارت " مراسلات " رسالة رقم ٧٥ ص ٤٥٦.

ثانيا : المعجزة واقعة محددة لا تدل إلا على قدرة محدودة متناهية، وقدرة الإله التي هي نفسها قدرة الطبيعة مطلقة لا نهائية،فكيف يستدل بما هو محدود متناهي على المطلق اللا متناهي.

ثالثا : المعجزة بمعناها المعطل لقوانين الطبيعة والخارق لنظام الكون تجعلنا نشك في وجود الله لا إثبات وجوده، ودليل ذلك ما حدث من بني إسرائيل وأنبيائهم من شك في وجود الله رغم كثرة معجزاتهم.

رابعا : المعجزة تؤدي إلى إسقاط العناية الإلهية، لأنها لا تكشف عن طبيعة الله ولا تثبت وجوده، وذلك بخلاف دلالة القوانين الطبيعية الثابتة فإنها تؤدي إلى إثبات وجود الله ومن ثم عنايته.

خامسا : إن القول بالمعجزات ينطوي على الاعتقاد بوجود قدرتين متناقضتين هما : قدرة الله وقدرة الطبيعة، وهذا يتنافى مع الاعتقاد بأن الله هو الطبيعة وقدرة الطبيعة هي قدرة الله.

?لاعتر? ??لر?بع : ?لمعجز? ? لا تد ? على صد ??لوحي ?لإ ?ي ??ثبا ??لنبو?.

إذا كانت المعجزات لا تثبت وجود الله، ولا تكشف عن ماهيته، ولا تدل على عنايته عند اسبينوزا، فمن باب أولى ألا تدل المعجزات على صدق الوحي وإثبات النبوة. إن هذا ما قدمه اسبينوزا من اعتراض على المعجزات، ويمكن توضيحه من خلال أمرين :

الأول : أن المعجزات قد تحدث لبعض الكاذبين من أدعياء النبوة، ولذلك فهي لا تدل على النبوة والرسالة، يقول اسبينـوزا :" ولنقل أخيرا إن أساطين الكذب يستطيعون هم أنفسهم إجراء معجزات " [١] ودليل ذلك ما جاء في سفري التثنية [٢] وإنجيل متى [٣] أنه سيظهر بعض مدعي النبوة ويقدمون معجزات وآيات على دعواهم، ويجب ألا نسمع إلى كلام هؤلاء " [٤].

الثاني : أن المعجزات ليست خاصة بالأنبياء، بل قد تحدث لغير النبيين من الصالحين أو حتى الوثنيين، وفي هذا دلالة كافية على أن المعجزات لا تدل على صدق النبوة.

يقول اسبينوزا : " وهذا ما كان يعتقده يوسف – المؤرخ – لأنه يقول في آخر الكتاب الثاني من " أخبار الأقدمين " لا يجب على أحد لهذا السبب أن يرفض الاعتقاد بأن الأمر يتعلق بواقعة معجزة، وبأن أناسا من القدماء لم يعرفوا الرذيلة قد انشق لهم عبر البحر طريقا للنجاة، سواء أكان ذلك بإرادة الله أم

---

(١) رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٣٩ .

(٢) النص في سفر التثنية " ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قائلا لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها ونعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبي " الاصحاح ١٣ ، الفقرتان : ١ ، ٢ – ص ٢٠٠ ، الكتاب المقدس .

(٣) النص في إنجيل متى " حينئذ إن قال لكم أحد هو ذا المسيح هذا أو ذاك فلا تصدقوا لأنه سيقوم مسحاء كذبة ، وأنبياء كذبة ، ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين " الإصحاح ٢٤ – الفقرتان ٢٤ ، ٢٥ ص ٤٥ العهد الجديد .

(٤) اسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٢٣٩ .

كان تلقائيا، على حين رأى جنود الإسكندر ملك مقدونيا بحر مفيليا يتراجع أمامهم وأصبح لهم طريقا بعد أن ضلوا كل طريق وذلك عندما أراد الله أن يقضي على قوة الفرس، وهذا ما يتفق عليه تماما جميع رواة أخبار الإسكندر، فلكل فرد الحرية في أن يعتقد ما يشاء، وتلك هي أقوال يوسف المؤرخ،وهذا حكمه على الإيمان بالمعجزات"[١]

فهذا النص الذي نقله اسبينوزا عن يوسف المؤرخ يهدف من خلاله أن يثبت في الظاهر أن كل إنسان يستطيع أن يصدق أو لا يصدق بالمعجزات، فإن لم يصدق فإنه يحكم عقله، والحقيقة أن المعجزة التي رواها يوسف المؤرخ ونقلها اسبينوزا معجزة وثنية شبيهة بمعجزة البحر الأحمر،وهنا يثبت اسبينوزا غرضه البعيد –أو اعتراضه–وهو أن المعجزات لا تثبت الوحي اليهودي أو المسيحي،لأنها تسمح بإثبات أن الإسكندر الملك الوثني كان نبيا، وبالتالي لا يصبح لموسى أو المسيح أي فضل[٢] طالما أن المعجزات تحدث لهم ولغيرهم حتى وإن كانوا غير موحدين.

إن ما يهدف إليه اسبينوزا هنا أن يبين أن المعجزات تحدث على يد الكاذبين والمشعوذين، وأنها قد تحدث لغير الأنبياء من الصالحين، فالمعجزات ليست خاصة بالأنبياء، وبالتالي فهي لا تدل على صدقهم.

ولهذا يقول اسبينوزا:" إنني مقتنع أن حكمة العقيدة وحدها هي التي يقوم عليها إثبات صدق الوحي الإلهي؛وليس المعجزات التي لا تقوم إلا على الجهل"[٣].

---

(١) اسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٢) د / حسن حنفي : هامش رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٤٠ .

(٣) مبادئ فلسفة ديكارت " مراسلات " رسالة رقم ٧٣ ص ٤٥١.

?لاعتر? ? ?لخامس:?لشك ? مصد?قية نقل ?لر?? للمعجز? ?.

أقام اسبينوزا هذا الاعتراض من خلال التشكيك في رواة المعجزات، وبالتالي الشك في صحة وقوعها.

يقول اسبينوزا : " فنادرا ما يروي الناس شيئا كما حدث بسهولة دون إقحام رأيهم الخاص فيه، وذلك أنهم إذا رأوا شيئا جديدا أو سمعوا به فإن أذهانهم ما لم يحترسوا كل الاحتراس من آرائهم وأحكامهم المسبقة، تنشغل بها إلى حد أنهم يدركون شيئا مخالفا كل الاختلاف لما رأوه ولما تعلموه من الآخرين، ولا سيما إذا كان الأمر متعلقا بشيء يتجاوز فهم الراوي أو السامع، وبوجه خاص إذا كان لهذا أو ذاك مصلحة في أن يحدث الشيء على نحو معين " (١).

في هذا النص يفصح اسبينوزا عن أسباب شكه في نقل الرواة للمعجزة، ومن هذه الأسباب : أن الرواة لم ينقلوا الحادثة كما وقعت بالفعل بل ضمنوها آراءهم وأحكامهم المسبقة، مما يعني أن الحادثة قد تكيفت مع معتقدات الرواة ونقلت على أنها معجزة، ومنها : أن الرواة ينقلون شيئا مخالفا لما وقع بالفعل، وبخاصة إذا كان هذا الشيء يتعدى حدود الفهم الإنساني، أو أن لراويه مصلحة في حدوثه على هذا الشكل المعين، كإقناع العامة عبر إثارة نفوسهم وتحريك الخيال لديهم باعتقاد هذا الأمر.

ومنها : أن تكون الرواية إبداع شعري أو تعبير مجازي وليس حادثة وقعت بالفعل " وذلك أن كثيرا من الروايات في الحقيقة إبداع شعري، أو تعبير عن آراء الراوي وأحكامه المسبقة " (٢).

---

(١) رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٣٤ .

(٢) اسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٣٣ .

ومنها : أن الرواية لم تحدث بالفعل، وإنما كانت إضافة إلى الكتب المقدسة أدخلها العابثون بالمقدسات، وبخاصة إذا علمنا أن الكتاب المقدس لم يشتمل على حادثة إلا ولها سببها الطبيعي الذي يفسرها، وأن كل ما ورد في الكتاب على أنه حدث بالفعل، قد حدث وفقا لقوانين الطبيعة ونظامها.

ولهذا يقرر اسبينوزا أنه إذا وجدنا حادثة ما، وتيقنا بأنها تناقض قوانين الطبيعة، وبأنها لم تصدر منها، فيجب الاعتقاد بأنها إضافة إلى الكتب المقدسة أقحمها العابثون بالمقدسات " (١).

إن ما يهدف إليه اسبينوزا من هذا الاعتراض هو أنه لا يمكن لنا التصديق بصحة حدوث المعجزات، لأن رواتها في الغالب الأعم مشكوك فيهم وفي طريقة نقلهم لها.

?لاعتر? ? ?لسا? ? :?لمعجز? ? تتناقض مع ?لمعرفة ?لأ?لية،?هذ? يؤ? ?? ? فسا??لمعرفة ?لإنسانية.

يرى اسبينوزا أن حدوث المعجزات يؤدي إلى الشك في المعرفة الفطرية ويؤدي ذلك إلى محو المعرفة الإنسانية.

وقد أقام اسبينوزا هذا الاعتراض على التقابل بين المعرفة الأولية والتي تمتاز بالوضوح والتمييز، والمعجزات التي تقوم حقيقتها على خرق النظام الطبيعي، ولذا فهي غامضة، وتناقض النظام الطبيعي.

يقول اسبينوزا : " إننا نعلم أن الشيء لا يتفق مع الطبيعة أو يناقضها إلا بقدر ما نعلم أنه يتفق مع هذه الأفكار الأساسية أو يناقضها، وبالتالي فلو استطعنا أن نتصور شيئا يحدث في الطبيعة أيا كان هذا الشيء بقوة تناقض الطبيعة فإن هذا الشيء يكون مناقضا لهذه الأفكار الأولية، ويجب رفضه

---

(١) رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٢٣٤ .

باعتباره ممتنعا، وإلا وجب علينا الشك في هذه الأفكار الأولية، وفي كل ما أدركناه بأي وسيلة كانت " (١).

ولا يوجد في رأي اسبينوزا ما هو أكثر مناقضا للطبيعة ونظامها غير المعجزات، ولذا فإنها تناقض الأفكار الأولية، وبالتالي يجب رفضها.

يقول اسبينوزا : " وعندما نفترض أن المعجزة تخرق نظام الطبيعة أو تقضي عليه أو تناقض قوانينها فإنها بهذا المعنى لن تقصر – كما أوضحنا من قبل – على أن تكون عاجزة عن إعطاء أية معرفة عن الله، بل على العكس ستمحو المعرفة الفطرية التي لدينا، وتجعلنا نشك في الله وفي كل شيء " (٢)، ويسقط اليقين عن أية معرفة كانت لدينا ويحل الشك محل اليقين، وتصبح كل معرفة عرضة للاحتمال، وتسود الخرافة والأوهام بدلا من العلم واليقين، هذا ما يراه اسبينوزا، ولهذا يحكم على المعجزات بأنها من ادعاءات الجهل الإنساني البعيد عن كل فكرة صحيحة عن الله والطبيعة، وأن العامة الجاهلون بمبادئ الأشياء الطبيعية وعللها هم المصدقون لها (٣).

تلك كانت اعتراضات اسبينوزا على المعجزة والتي على إثرها أنكر إمكانها أو حدوثها وكما هو بين فإن هذه الاعتراضات تعود في مجملها إلى الأسس التي قامت عليها فلسفته الميتافيزيقية، والمتمثلة في مبدأ الحتمية، والتوحيد بين الإله والطبيعة.

---

(١) رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٥ .

(٢) نفس المرجع ص٢٢٧ .

(٣) راجع رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٢ .

المبحث الثاني
تفسير اسبينوزا لمعجزات الكتاب المقدس

كان من الطبيعي ونتيجة لموقف اسبينوزا الرافض لإمكان المعجزات، وانطلاقا من اعتقاده بسيادة الضرورة في أعمال الطبيعة وأن كل الحوادث ظواهر طبيعية لها من العلل المباشرة ما يفسرها أن يقوم اسبينوزا بتفسير ما ورد في الكتاب المقدس من وقائع أعتقد أنها معجزات، وذلك بالكشف عن عللها الطبيعية، كي يثبت أنها ظواهر طبيعية وليست بمعجزات خارقة لقانون الطبيعة كما توهم الرواة، واعتقد العامة من الناس.

وفي هذا المبحث نقدم بعضا من هذه المعجزات التي فسرها اسبينوزا طبيعيا عبر تعيين عللها الطبيعية المعروفة بالنور الفطري، ولكن قبل ذلك يتحتم علينا أن نبين منهج اسبينوزا في دراسته لهذه المعجزات.

??لا : منهج ?سبينو?? ? ???سة معجز? ??لكتا ??لمقد ? :

اعتمد اسبينوزا في دراسته للمعجزة على مبادئ النور الفطري وذلك بخلاف بحثه لمسألة النبوة والتي اعتمد فيه على النص الموحى به والقراءة الداخلية لمعطيات النص في الكتاب المقدس.

يقول اسبينوزا : " لقد اتبعت فيما يتعلق بالمعجزات منهجا مخالفا كل الاختلاف للمنهج الذي اتبعته في حديثي عن النبوة، إذ لم أثبت شيئا في النبوة إلا ما استنبطته من المبادئ الموحى بها في الكتب المقدسة، على حين أني اعتمدت أساسا في هذا الفصل على المبادئ التي يميلها النور الطبيعي"[١].

---

(١) رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٣٨ .

ويبين اسبينوزا السبب في اعتماده المنهج العقلي في بحث المعجزات أنه يعود إلى طبيعة بحث موضوع المعجزة إذ يعد بحثا فلسفيا خالصا وذلك بخلاف النبوة والتي في ذاتها تتعدى حدود الفهم الإنساني.

يقول اسبينوزا : " فلما كان موضوع بحثنا في المعجزات هو هل نستطيع التسليم بحدوث شيء ما في الطبيعة يناقض قوانينها أو يستحيل استنتاجه منها، بحثا فلسفيا محضا وجدت من الأصوب بحث هذه المسألة بالأسس المعروفة بالنور الفطري " (١).

هذا هو منهج اسبينوزا في بحثه للمعجزات، هو الاحتكام إلى العقل، ولنا على هذا المنهج ملاحظتان :

الأولى : عدم وجود مسوغ حقيقي للتفرقة بين منهج بحث المعجزة وبين النبوة، فكلاهما من الأمور الغيبية، وإنكار إحداهما يستلزم إنكار الأخرى.

الثانية : أنه ليس من حق العقل أن يحكم بامتناع المعجزة، وذلك لأنها من الأمور الممكنة عقلا، وخلقها من الناحية العقلية بمقياس البشر أهون من خلق هذا العالم، الذي يعد خلقه أكبر معجزة، فلجوء اسبينوزا إلى العقل لنفيها هو خلط منه بين مدركات الذات العاقلة وحدودها.

---

(١) نفس المرجع ص ٢٣٩ .

ثانيا : تفسـ ??سبينو?? للمعجز? ? :

يذهب اسبينوزا إلى أن الكتاب المقدس لم يرد فيه نص يقول أن ما يحدث في الطبيعة مناقضا لقوانينها أو يستحيل استنباطه منها، وعلى هذا الأساس يرى اسبينوزا أن ما ورد في الكتاب من أحداث أطلق عليها معجزات ما هي إلا ظواهر طبيعية تحدث وفق نظام الكون الثابت، وبالتالي يجب تفسيرها بحيث لا تبدو في صورة مناقضة لنظام الطبيعة وقوانينها.

يقول اسبينوزا : " لا نشك في أن الكتب المقدسة قد روت كثيرا من الوقائع التي يقال عنها معجزات، ويمكن دون عناء تعيين عللها بالمبادئ المعروفة للأشياء الطبيعية " (١).

ويقول : " إن كل ما يرويه الكتاب على أنه حدث بالفعل قد حدث بالضرورة طبقا لقوانين الطبيعة شأنه في ذلك شأن كل ما يحدث " (٢).

ومن هذا المنطلق يفسر اسبينوزا معجزات الكتاب المقدس، مبينا أنها وقائع طبيعية لها من العلل المباشرة ما يكشف عنها، مستعينا في ذلك ببعض الأمور التي يجب مراعاتها، إذا ما أردنا التفسير الطبيعي لمعجزات الكتاب ومعرفة كيف حدثت الأمور بالفعل، وهذه الأمور تتمثل في :

??لا :?لرجو ? بالر??يا ?? ? مصا??ها ??فكا??لر?? ???? ?لمؤ? ? :

بمعنى أنه يجب أن نعرف آراء الرواة الأوائل، وأول من دون هذه الرواية، ثم التمييز بين هذه الآراء أو الأفكار والتصور الحسي الذي يتكون عند حدوث الواقعة موضوع الرواية (٣).

---

(١) رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٤ .

(٢) نفس المرجع ص٢٣٤ .

(٣) رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٣٤ ، ٢٣٥ .

ويعلل اسبينوزا هذا الرجوع بتجنب الخلط بين الواقعة نفسها كما حدثت بالفعل وبين أفكار الرواة وأحكامهم، وكذلك عدم الخلط بين الأشياء التي حدثت بالفعل وبين الأشياء الخيالية التي لم تكن إلا رؤى نبوية خيالية، وكذلك التأكد من سلامة الحواس التي تطبع على الخيال " [١]، وذلك لأنه قد نقلت أشياء كثيرة في الكتاب على أنها وقعت بالفعل وظنها الناس كذلك، ولكنها لم تكن إلا رؤى وأمورا خيالية [٢].

ويقدم اسبينوزا بعضا من الأمثلة لروايات من الكتاب ظنها العامة معجزات، وهي في الحقيقة لم تكن إلا رؤى خيالية حدثت

نتيجة للانطباع الذي قدمته الحواس للخيال، وذكرت على أنها حدثت بالفعل، منها :" نزول الله من السماء (وهو الموجود الأعظم)،وتصاعد الدخان من جبل سيناء،لأن الله قد نزل محاطا بالنار"[٣]كما حدد ذلك سفري الخروج والتثنية[٤].

ويرفض اسبينوزا كون هذه التصورات معجزات ويرى أنها مجرد رؤى تتناسب مع أفكار الرواة وأحكامهم المسبقة والتي قصوها علينا كأنها حقائق وقعت بالفعل، ويرى أن من يمتلكون معرفة تفوق معارف العامة ولو بقليل، يعلمون أن الله ليس له يمين ولا يسار وأنه لا يتحرك ولا يسكن ولا يوجد في مكان، وأنه لا متناه على نحو مطلق يحتوي في ذاته على جميع الكمالات،

---

(١) نفس المرجع ص ٢٣٥ .

(٢) نفس المرجع والموضع .

(٣) رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٣٥ .

(٤) النص في سفر الخروج " وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار " الإصحاح ١٩ – فقرة ١٩ ص ١١٨ من الكتاب المقدس .

والنص في سفر التثنية : " فلما سمعتم الصوت من وسط الظلام والجبل يشتعل بالنار تقدمتم إلى رؤساء أسباطكم وقلتم هو ذا الرب إلهنا قد أرانا مجد عظمته وسمعنا صوته من وسط النار " الإحاح ٥ فقرات ٢٤ ، ٢٥ ، ص ٢٢٨ من الكتاب المقدس .

وهذه المعرفة يعلمها كل من يحكم على الأشياء بإدراكات الذهن الخالص لا تبعا للانطباع الذي تقدمه الحواس للخيال كما يفعل العامة عندما يصطنعون إلها مجسما " (١).

وأصحاب هذه المعرفة حسب تصور اسبينوزا هم الفلاسفة الذين يحكمون على الأشياء بالفكرة الواضحة لا المعجزات،ولذا هم لا يسلمون بهذه الروايات(٢)

ومن الأمثلة التي وردت في الكتاب المقدس وظنها العامة معجزات، وهي في الواقع نتيجة للخلط بين الحادثة كما وقعت بالفعل وأحكام الرواة المسبقة " أن العبرانيين في زمن يشوع كانوا يعتقدون أن الشمس تتحرك حركة تسمى يومية في حين تظل الأرض ثابتة ثم كيفوا طبقا لهذه الفكرة المسبقة المعجزة التي حدثت أثناء معركتهم ضد الملوك الخمسة، فلم يروا فقط أن النهار قد طال أكثر من المعتاد، بل رأوا أيضا أن الشمس قد توقفت وانقطعت حركتها " (٣).

وكانت القصة معروفة على هذا النحو نافعة للغاية في ذلك الوقت لإقناع غير اليهود عبدة الشمس والبرهنة لهم بالتجربة ذاتها على أن الشمس خاضعة لقوة إلهية أخرى تستطيع بفعل يسير أن تغير مسارها الطبيعي، وهكذا فإنهم بدافع من العقيدة ومن الرأي المسبق في آن واحد قد تصور الأمر وروه على نحو مخالف كل الاختلاف لما كان من الممكن أن يقع بالفعل (٤).

---

(١) رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٣٥ .

(٢) رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٩ ، ٢٣٦ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٣٤ والنص في سفر يشوع " وحينئذ كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الآموريين أمام بني إسرائيل وقال يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي أيلون ، فدامت الشمس ووقف القمر " .

(٤) اسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٣٤ ، ٢٣٥ .

يرى اسبينوزا " أنه لا يوجد في الكتاب ما هو أوضح من هذه الواقعة في الخلط بين أفكار الرواة وأحكامهم المسبقة والحادثة كما وقعت، وذلك عندما اعتقد يشوع وربما اعتقد معه كاتب قصته بدوران الشمس حول الأرض وثبات الأرض، وتوقف الشمس بعض الوقت " [١]، " ورأوا ذلك معجزة ليشوع، ويرفض اسبينوزا كون هذه الحادثة معجزة، ويرى أنها ظاهرة طبيعية لها سببها الطبيعي، وهو كمية الصقيع التي كانت موجودة في هذه اللحظة وأدت إلى انعكاس الضوء فاستطال النهار وتأخر الليل، فتوهم يشوع ومن معه بأن الشمس توقفت في كبد السماء " [٢].

ثانيا : معرفة ?ساليب ?لخطا ? ??لصو??لبلاغية عند ?لع ??نيين :

من الأمور التي يجب وضعها في الاعتبار عند تفسير المعجزة حسب رأي اسبينوزا، معرفة أساليب الخطاب والصور البلاغية التي يستعملها العبرانيون في التعبير عن الوقائع والحوادث.

إذ يذكر اسبينوزا أنه كثيرا ما كانت تروى الحوادث على نحو بلاغي للتعبير عن أشياء أخرى دون أن تكون وقعت بالفعل، وأننا إذا لم ننتبه إلى هذه الأساليب، فإنا نرى في الكتاب كثيرا من المعجزات المختلفة التي لم يفكر من قاموا بتدوينها في روايتها أبدا، ومن ثم نجهل تماما الوقائع والمعجزات كما حدثت بالفعل، ونجهل أيضا فكر مؤلفي الكتب المقدسة [٣].

ويذكر اسبينوزا بعضا من الحوادث التي وردت في الكتاب واعتقد أنها معجزات وهي في الحقيقة لم تتجاوز كونها تعبيرا بلاغيا أو أسلوبا خطابيا استخدم في التعبير عن الواقعة التي حدثت بصورة طبيعية.

---

(١) رسالة في اللاهوت والسياسة ص١٥٦ .

(٢) نفس المرجع ص ١٥٧ .

(٣) نفس المرجع ص٢٣٦ .

ومن هذه الروايات حديث زكريا عن حرب مستقبلية في يوم معلوم عند الرب ليس نهارا ولا ليلا، بل يكون وقت المساء نور"[١].

ويعلق اسبينوزا قائلا : إنه بالرغم مما يبدو أنه تنبأ بهذه الكلمات بمعجزة كبرى ومع ذلك فهي لا تعني أكثر من أن نهاية الحرب التي يعرفها الله وحده ستظل مجهولة طوال النهار وفي المساء سيتم النصر " [٢]. فالأمر لا يتجاوز كونه تعبيرا بلاغيا لا أكثر ولا أقل في نظره.

ومن هذه الروايات التي عدت معجزات وهي في الحقيقة أسلوب خطابي " وصف أشعيا هدم بابل بأن كواكب السماء ونجومها لا تبعث نورها، وأن الشمس تظلم في خروجها، والقمر لا يضيء بنوره، يقول اسبينوزا : " ولا يوجد من يعتقد أن ذلك قد حدث بالفعل عندما هدمت امبراطورية بابل " [٣].

إن هذه الروايات في رأي اسبينوزا ليست معجزات، وإنما هي نوع من المحسنات البديعية الشائعة في خطاب اليهود ظنها العامة معجزات.

وينتهي اسبينوزا إلى " أننا إذا راعينا أن الكتاب لا يتحدث إلا عن أشياء طبيعية بمعنى الكلمة، وتنبهنا إلى أن كثيرا من الروايات مختصر للغاية، ولا تعطي إلا تفصيلات قليلة، وقد تكون مبتورة، فإننا لن نكاد نجد في الكتاب شيئا يمكن البرهنة على أنه مناقض للنور الطبيعي، وتصبح كثيرا من النصوص التي بدت غامضة مفهومة بعد شيء من التفكير وبذلك يسهل تفسيرها " [٤].

---

(١) سفر زكريا : الإصحاح ١٤ – الفقرتان : ٧ ، ٨ .

(٢) رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٣٦ .

(٣) رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٢٣٦ ، والنص في سفر أشعيا " فإن نجوم السماء لا تبرز نورها وتظلم الشمس عند طلوعها ، والقمر لا يلمع بنوره " الإصحاح ١٣ الفقرة ١١ .

(٤) رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٢٣٧ .

وعلى هذا يفسر اسبينوزا ما ورد في الكتاب المقدس من معجزات مثل شق البحر بعصا موسى عليه السلام، وتوقف الشمس في كبد السماء، بأنها ظواهر طبيعية حدثت بأسباب طبيعية، مستعينا في ذلك بجانب الرجوع بالرواية في فكر الرواة وأحكامهم المسبقة، والانتباه إلى أساليب الخطاب عند اليهود، بشواهد عديدة من معجزات الكتاب نفسه تكشف عن ضرورة وجود هذه الأسباب الطبيعية، حتى ولو كانت حذفت في بعض الأحيان لكنها تبقى شواهد تؤكد أن ما من ظاهرة أو حادثة إلا ولها من العلل الطبيعية ما يفسرها، ومن ذلك ما جاء في سفر الخروج " أن موسى ذر الرماد في الهواء ليعدي المصريين " (١)." وأن الجراد غزا مصر بأمر طبيعي من الله، أي بريح شرقية هبت طيلة يوم كامل وليلة، ثم طرد بريح غربية عاتية " (٢)، وكذلك كان لابد لكي يعيد اليشاع الحياة إلى الطفل الذي ظن الجميع أنه قد مات أن يستلقي بجواره بعض الوقت حتى يبعث فيه الدفء وفتح الطفل عينيه " (٣).

فكل هذه المعجزات ظواهر طبيعية حدثت بعلل طبيعية، فالرماد هو سبب عدوى المصريين بالجدري، والرياح الشرقية هي السبب الطبيعي في دخول الجراد مصر، كما أن الرياح الغربية هي السبب في خروجه منها، وهو أمر

---

(١) النص في سفر الخروج " فاخذ رماد الآتون ووقف أمام فرعون وذراه موسى نحو السماء وصار دمامل طالعة في الناس والبهائم " إصحاح ٩ ، الفقرتان ٩ : ١٢ ، ص١٠٠ من الكتاب المقدس .

(٢) النص في سفر الخروج " فمد موسى عصاه على أرض مصر فجلب الرب على الأرض ريحا شرقية ، ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد ، فصعد الجراد إلى جميع أرض مصر ... فخرج موسى من لندن فرعون وصلى إلى الرب ، فرد الرب ريحا غربية شديدة جدا فحملت الجراد وطرحته إلى بحر سون ولم تبق جرادة واحدة في تخوم مصر " إصحاح ١٠ – الفقرات من ١٢ : ٢٠ ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) النص في الملوك الثاني : " ثم صعد واضطجع فوق الصبي ووضع فمه على فمه وعينيه على عينيه ويديه على يديه وتمدد عليه فسخن جسد الولد...ثم فتح الصبي عيناه " إصحاح ٤ – الفقرتان : ٢٥ ، ٢٦ .

طبيعي أيضا، والدفء هو السبب الطبيعي في عودة الحياة للطفل الذي كان مغشيا عليه بسبب هبوط حرارته وظن العامة أنه مات، فكل هذه المعجزات حدثت بعلل طبيعية ولها من الكتاب شواهد تؤكد وجود هذه الشواهد، وتبين أن هذه المعجزات تطلب شيئا آخر إلى جانب الله.

يقول اسبينوزا : " ونجد في الكتاب نصوصا أخرى كثيرة تكفي لبيان أن المعجزات تتطلب شيئا آخر إلى جانب الأمر المطلق – كما يسمونه – الله، فيجب إذا أن نعتقد أنه بالرغم من أن ملابسات الحوادث وعللها الطبيعية لا تروى دائما أو لا تروى كلها فإنها كانت دائما موجودة " (١).

ومن هذه الملابسات التي تؤكد وجود السبب الطبيعي فيما يطلق عليه معجزات، رواية سفر الخروج لمعجزة انشقاق البحر لموسى، فقد ذكرت أن البحر أطاع موسى بحركة يسيرة منه دون ذكر للريح " (٢)، وهذه الريح هي السبب المباشر في انشقاق البحر لموسى كما يرى اسبينوزا مؤكدا ذلك برواية نشيد الإنشاد (٣)، فقد ذكرت أن هذا حدث بفعل ريح شرقية شديدة هي التي شقت لبني إسرائيل طريقا في البحر " ولكن حذف ذلك الظرف التفصيلي يجعل المعجزة تبدو اعظم " (٤).

إذا الريح الشرقية هي السبب الطبيعي في انفلاق البحر لموسى ولكن حذف هذا السبب حتى تحوز المعجزة أكبر قدر من الإعجاب، وبث الخشوع والإيمان في قلوب العامة، وذلك لو أن موسى قال لبني إسرائيل إن الرياح هي التي شقت لهم طريقا في البحر لما كان لقوله أثر على عقولهم.

---

(١) رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٢٣٣ .

(٢) النص في سفر الخروج : " ومد موسى يده على البحر فأجر الرب بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء " الإصحاح ١٤ – فقرة ٢٢٥ ص١١٠.

(٣) لم يرد هذا النص في نشيد الإنشاد كما ذكر اسبينوزا ، وهو موجود في سفر الخروج الإصحاح ١٤ – الفقرتان ٢١ ، ٢٢ .

(٤) رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٢٣٣ .

وينتهي اسبينوزا من عرض رؤيته لمعجزات الكتاب المقدس إلى تأكيد أنه لا توجد حادثة إلا ويمكن تفسيرها بالعلل الطبيعية، وأن كل ما يرويه الكتاب على أنه حدث بالفعل قد حدث بالضرورة طبقا للقوانين الطبيعية، وأنه لا يمكن لأحد أن يعترض فيقول " من الممكن أن نجد في الكتاب المقدس حوادث عديدة لا يمكن على أي نحو تفسيرها بالعلل الطبيعية، كالقول بأن خطايا البشر وصلواتهم يمكن أن تكون علة المطر وخصب الأرض – وبالتأكيد هي علل غير طبيعية – وأن الإيمان يمكن أن يشفي العمى، وما شابه ذلك من الحوادث التي روتها الكتب المقدسة (١).

وذلك " لأن الكتاب يتحدث عن الله وعن الأشياء بأسلوب غير دقيق، لأنه لا يريد إقناع العقل بل إثارة الخيال وشحذ قدرته على التصوير، فالكتاب لا يعرفنا الأشياء بعللها الطبيعية القريبة، بل يرويها بترتيب وأسلوب من شأنهما أن يثيرا في الناس وفي العامة بوجه خاصة أعظم قدر من الخشوع والإيمان " (٢).

فذلك هو طبيعة خطاب الكتاب المقدس عن الله وعن الأشياء، وذلك هو الهدف الذي يرمي إلى تحقيقه، وما خلا ذلك من روايات الكتاب المقدس هي ظواهر طبيعية حدثت طبقا لنظام الطبيعة وقوانينها، فلا وجود لما يسمى المعجزات الخارقة لنظام الطبيعة.

كان ذلك تفسير اسبينوزا لمعجزات الكتاب المقدس، ومنهجه في هذا التفسير تبين لنا من خلاله :

أولا : أن اسبينوزا لا ينكر حدوث الواقعة ولكنه ينكر كونها خارقة لنظام الطبيعة أو مناقضة لها، وبالتالي فلا مجال للقول بإمكان المعجزات أو وقوعها.

---

(١) رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٢٣٣ .

(٢) نفس المرجع والموضع .

ثانيا : المعجزة في رأي اسبينوزا حدث طبيعي له علله الطبيعية لكن العامة يطلقون عليه معجزة لجهلهم بالعلل الطبيعية والعلم الطبيعي.

ثالثا : فسر اسبينوزا معجزات الكتاب المقدس تفسيرات مادية كالحال في معجزة انشقاق البحر لموسى، وتوقف الشمس في كبد السماء لنصرة اليهود.

رابعا : اتهام اسبينوزا خطاب الكتاب المقدس عن الله وعن الأشياء بأنه غير دقيق ولا يهدف إقناع العقل بقدر إثارة الخيال وبث الإيمان والخشوع في القلوب، وهو بذلك يناقض نفسه عندما يقطع بأن روايات الكتاب المقدس ظواهر طبيعية لها عللها الطبيعية.

خامسا : إن الكثير من روايات الكتاب والتي اعتقد الناس أنها معجزات هي في الحقيقة إبداع شعري وتعبير بلاغي عن الحادثة، أو خلط بين آراء الأنبياء والرواة وأحكامهم المسبقة والحادثة كما وقعت بالفعل.

سادسا : جزم اسبينوزا بتحريف الكتاب المقدس العهد القديم والعهد الجديد، وذلك بذكره أن هناك إضافات أقحمها العابثون فيه، وهو صادق في ذلك.

سابعا : استخدام اسبينوزا في دراسته للمعجزات المنهج العقلي وهذا المنهج لا يتفق وطبيعة بحث المعجزات، لأنها من الأمور الغيبية.

المبحث الثالث
نقد المحاور والرد على الاعتراضات

شكلت اعتراضات اسبينوزا على المعجزة المرجع الرئيسي لمنكري المعجزات في العصر الحديث، وبخاصة لدى دعاة المذهب الربوبي في القرن الثامن عشر، والذي يعد إنكار المعجزة أحد الأصول الرئيسية التي يقوم عليها هذا المذهب.

وقد أصبحت هذه الاعتراضات حجة الملحدين لإنكار الدين، إذ قالوا : إن المعجزة تتناقض مع القوانين الطبيعية والعلمية، وأن الاعتقاد بحدوثها يؤدي إلى الشك في الأفكار الأولية والحقائق العلمية وذلك يؤدي إلى فساد المعرفة والعلم، ولذلك فهي غير ممكنة، ولو صح إمكانها فإن العلم بحدوثها مستحيل، لأنها لا تخضع لقواعد العلم وقوانينه، ولا يوجد وسيلة أخرى للتحقق من صحة وقوعها، فلا مجال إذا للقول بإمكان المعجزة أو وقوعها.

وينتهون من ذلك إلى الحكم بأن ما ورد من المعجزات في الكتب المقدسة هي ظواهر طبيعية لها أسبابها الطبيعية، وما خالف ذلك فهو ضرب من الأوهام والخيالات، نتيجة للجهل الإنساني واعتقاده بالأساطير والخرافات.

ومما لا شك فيه أن إنكار المعجزة يتبعه إنكار النبوة، ثم إنكار وجود الإله والدين بصفة عامة، وهذا ما وجده الملحدون في اعتراضات اسبينوزا على المعجزة، فعملوا على ترويجها عبر تبنيهم لها.

ولهذا رأينا أنه بالرد على هذه الاعتراضات ونقدها، تبطل جميع حجج المنكرين للمعجزة من الملحدين ودعاة الدين الربوبي.

??لا : نقد ?لمعا?? :

أوضحنا سابقا أن معظم اعتراضات اسبينوزا على المعجزة تعود إلى مبدأين أساسيين هما : مبدأ الحتمية، والتوحيد بين الإله والطبيعة، فكما شكلا هذان المبدآن أساس فلسفة اسبينوزا الميتافيزيقية والفيزيقية، فكذلك منهما انطلق اسبينوزا إلى رفض المعجزات، وعليهما أقام اعتراضاته.

وبنقد هذين المبدأين تنهار كل اعتراضات اسبينوزا على المعجزة، وتصبح لا قيمة لها في رفض المعجزة أو إنكارها، وهذا ما نعمل على بيانه.

??لا : نقد مبد??لحتمية :

يعني مبدأ الحتمية عند اسبينوزا والقائلين به : أن الكون يسير وفق نظام ضروري ثابت لا ينخرم، وأن قوانينه ضرورية لا يمكن خرقها.

وقد شملت الحتمية فى فلسفة اسبينوزا كل ما فى الكون من الإله، وظواهر الطبيعة، والإنسان، فالحتمية قانون مفروض على جميع ما فى الوجود، هذا ما يراه اسبينوزا والقائلين بالحتمية، ولكن الواقع يبين لنا أن القانون الطبيعى ليس نظاما ثابتا مغلقا ضروريا، بل إن الله الفاعل فى الكون فى قدرته أن يتدخل فى الطبيعة ويغير قوانينها، يشهد لذلك أن ما كنا نراه بالأمس القريب ثابتا ضروريا لا يتغير بتقدم العلم اكتشفنا أنه ليس هكذا، فلم يعد النظام الكونى ضروريا كما يراه اسبينوزا، ولم تعد الحتمية صاحبة السيادة فى الكون، إن هذا ما تؤكده النظريات الحديثة فى علم الطبيعة، تلك التى تهدم الحتمية وفكرة القوانين الضرورية التي لا تتغير، كنظرية "الكوانتم" (١)، والتي أقرت أن العالم

---

(١) الكوانتم – ميكانيكا الكم – هي مجموعة من النظريات الفيزيائية والتي ظهرت في القرن العشرين لتفسير الظواهر على مستوى الذرة والجسميات دون الذرية ، وقد دمجت بين الخاصية الجسمية والخاصية الموجية ليظهر مصطلح اذواجية الموجية – الجسيم – وبهذا تصبح ميكانيكا الكم مسؤولة عن التفسير الفيزيائي على المستوى الذري ، كما أنها تطبق على الميكانيكا الكلاسيكية ، ولكن لا تظهر تأثيرها على هذا المستوى ، وسميت=

=

الجسيمى الصغير – الذرة وما دونها – لا يخضع للحتمية، وأن صفة اللا تحدد فيه هي السائدة (١).

لقد أدى تقدم علم الطبيعة إلى نشأة ما يطلق عليه اسم أزمة مبدأ الحتمية، ذلك أن علم الطبيعة التقليدي كان يصور العالم كما لو كان نظاما ميكانيكيا يمكن وصفه وصفا دقيقا بتحديد أجزائه من الوجهة الميكانيكية وما يطرأ عليها من التغيرات من الوجهة الزمانية... ولكن تبين أن القوانين الميكانيكية في علم الطبيعة التقليدي لا تنطبق إلا على الظواهر باعتبار أنها مركبات تامة التكوين في حين أنها لا تصدق بالنسبة إلى العناصر الأولية التي تتركب منها الظواهر أجساما كانت أم سوائل أم غازات، فقد اتضح أن عالم الطبيعة يعجز عن تحديد كل من موضع أحد الجزئيات التي تدخل في تركيب الأجسام ومن سرعة الجزئ في الوقت نفسه، ومعنى هذا أن عالم الطبيعة يعجز عن تحديد القوانين الخاصة باللا منتهيات في الصغر، ولو أمكن تحديد هذه القوانين لاختلفت عن القوانين التي تصدق بالنسبة إلى المركبات التي تتكون من هذه الجزئيات التي لا نهاية لصغرها " (٢).

إن مبدأ الحتمية والذي بنى عليه اسبينوزا معظم اعتراضاته على إمكان المعجزة، هو مبدأ ثبت عدم إطراده في ظواهر الطبيعة، وتقف في طريقه كثيرا من العقبات التي تجعل التسليم به والدفاع عنه أمرا صعبا إن لم يكن مستحيلا.

= بميكانيكا الكم لأهمية الكم في بنائها وهو مصطلح فيزيائي يستخدم لوصف كمية من الطاقة يمكن تبادلها بين الجسيمات ، وتستخدم للإشارة إلى كميات الطاقة المحددة التي تنبعث بشكل متقطع وليس بشكل مستمر ، فالطاقة تنبعث في هيئة كم ، أي وحدات صغيرة لا يوجد أصغر منها . راجع المعجم الفلسفى لمراد وهبه – ص ٧٢٤ – ٧٢٥ .

(١) د / يحيى محمد : منهج العلم والفهم الديني : العبور من العلم إلى الفهم ومن الفهم إلى العلم ص١٩٨ ، ١٩٩ ، نشر مؤسسة الانتشار العربي – بيروت – الطبعة الأولى ٢٠١٤م .

(٢) د / محمود قاسم : المنطق الحديث ص ٦٧ ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية .

يقول أدينجتون : " إن تقدم العلم الطبيعي في العصر الحاضر يجعل الدفاع عن مبدأ الحتمية المطلق مستحيلا، ويقول : إنه لا يعرف أي قانون حتمي في عالم الطبيعة، وإن فرض الحتمية لا يعتمد على أي دليل، بل هو في طريق الاختفاء، ويرى أن الإيمان بوجود علاقات دقيقة صارمة في الطبيعة، ذلك الإيمان الذي اعتمد عليه العلم عصورا طويلة ليس إلا نتيجة للطابع الساذج الفج الذي تتصف به معرفتنا للكون، ويرى أن هناك مجالا في الظواهر يسيطر عليه مبدأ آخر وهو مبدأ اللا حتمية " (١).

وإذا كانت نظريات العلم الحديث تثبت عدم إطراد مبدأ الحتمية في الظواهر الطبيعية، وبخاصة فيما يتعلق بالأجسام اللا متناهية الصغر أو ما دون الذرة، فهذا يعني أن مبدأ الحتمية يفتقد لمسماه، وأن هناك احتمالية في خرق النظام الطبيعي للكون وقوانينه.

بل والأكثر من ذلك أن مبدأ الحتمية ذاته " يتضمن افتراضات أخرى تسبقه أو تبرره وتحدد محتواه منها : افتراض أن ثمة نظاما في الطبيعة، وأن هذا النظام متكرر الوقوع في إطراد، وأن هذا الإطراد محكوم بعلاقة العلية " (٢)، وهذه الافتراضات في حاجة إلى البرهنة على صدقها، حتى يمكننا بعد ذلك التحقق من صدق مبدأ الحتمية " وهو ما لم يستطع أحد أن يبرهن على صدقه بطريقة قياسية كانت أو تجريبية " (٣).

وإذا كان مبدأ الحتمية لا يمكن البرهنة على صدقه، وأنه يوجد من نظريات العلم الحديث ما يثبت عدم اضطراده في الظواهر الطبيعية وأنه يقوم على افتراضات تحتاج إلى البرهنة عليها أولا حتى يتحقق من صدقه، فإن هذا يخولنا الحكم بأن الأساس الذي بنى عليه اسبينوزا امتناع المعجزات وعليه رفض وقوعها، لا يفي بغرضه ولا ينهض حجة له في رفض المعجزات.

---

(١) د / محمود قاسم : المرجع السابق ص٦٧ ، ٦٨ .

(٢) صلاح قنصوة : فلسفة العلم ص١٥٥ ، نشر دار قباء – القاهرة ١٩٩٨م .

(٣) د / محمود قاسم : المنطق الحديث ص ٦٤ .

ثانيا : نقد ?لتوحيد بين ? لله ??لطبيعة :

مثل التوحيد بين الله والطبيعة عند اسبينوزا المبدأ الثاني والذي من خلاله انطلق اسبينوزا في اعتراضاته على المعجزة، ورفضها، وذلك أنه إذا كان لا تمايز بين الله والطبيعة من الناحية الوجودية، فالله هو الطبيعة، والطبيعة في مجموعها الكلي هي الله، وحكم الله هو نظام الطبيعة، والمشيئة الإلهية هي قوانين الطبيعة، فلا مجال للقول بإمكان المعجزة أو وقوعها، بمعناها الخارق، لأن ذ لك معناه أن الله يعمل ضد طبيعته وضد مشيئته.

الرد : إن هذا المبدأ الذي أقام عليه اسبينوزا اعتراضه على المعجزة لا يمكن التسليم به في تحديد العلاقة بين الوجود الإلهي والوجود الطبيعي، ويرجع ذلك إلى عدة وجوه، منها :

الوجه الأول : إن التوحيد بين الله والطبيعة يتناقض مع التصور الإسلامي الصحيح للعلاقة بين الوجود الإلهي والوجود الطبيعي، ذلك التصور القائم على التنزيه والتوحيد للذات الإلهية، وذلك لأن تنزيه الله تعالى يعني أن وجوده تعالى غير محدد بالحركة في الزمان أو الوجود في المكان، حتى يتحد بالطبيعة، فيكون هو الطبيعة، وهي هو، " فالله سبحانه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا في مكان ولا في زمان، ولا تحله الحوادث " [(١)]، فالله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[الشورى آية:١١] ولا يشبه تعالى المخلوقات، ولا يشبهه سبحانه شيء منها، لأنه تعالى كما باين المخلوقات بقدمه، فكذلك باينته بحدوثها " [(٢)].

وأما مناقضتها للتوحيد فذلك أوضح وذلك " أن توحيده تعالى إنما يكون بتميزه أولا بذاته ووجوده مما سواه من المخلوقات لا في جعله متحدا مع كل شيء

---

(١) راجع الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص ١٥ وما بعدها – نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي – مصر ، ومعالم أصول الدين للفخر الرازي ص٤٠ وما بعدها ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية – بدون . وشرح المقاصد للتفتازاني – ج ٤ ص ٤٣ .

(٢) د / عبد العزيز سيف النصر : فلسفة علم الكلام في الصفات الإلهية . منهجا وتطبيقا ص ١٦٤ – مكتبة الإيمان .

ومندمجا فيه، ولا يكون إكبار الله واعتباره فوق كل شيء اعتبار وجود كل شيء وجوده، فما هذا إلا تلبيس في معنى التوحيد وإقامة الاتحاد مقامه فالقول باختلاط وجوده مع وجود كل شيء يخالف مغزى التوحيد، فكيف يمتاز الإله عن المألوه، والخالق عن المخلوق " (١).

الوجه الثاني : يقال فيه لاسبينوزا : إنك اتخذت من النظام الطبيعي دليلا على وجود الله، ورأيته أكمل وأوضح برهانا في الاستدلال على وجود الله، ونحن لا نخالف في ذلك، ولكن توحيدك بين الله والطبيعة يهدم هذا الدليل، إذ هو دور، وذلك أنه إذا كان الله هو مجموع الطبيعة، والطبيعة في مجموعها الكلي هي الله، فمعنى ذلك أن كل موجود في الطبيعة متضمنا لجزء من الله الذي هو الطبيعة في المجموع الكلي، فكيف يستدل بالطبيعة التي هي الله على وجود الله الذي هو الطبيعة؟! وأنت في ذات الوقت تقول إن فكرة الله غير واضحة، وفي حاجة للأفكار الواضحة حتى يستدل عليها.

يقول بول زانه : " أنه لو صح اتحاد كل موجود مع الله في الوجود بمعنى أنه لا وجود غير وجود الله، لكان كل منا نحن البشر يشعر بأنه الله " (٢).

الوجه الثالث : يقال لاسبينوزا : إنك أثبت للإله صفة الأزلية، ولكن توحيدك بينه وبين الطبيعة يمنع عنه هذا الوصف، وذلك من خلال أمرين :

الأول : ما تتحدث عنه النظريات الحديثة عن بدايات مختلفة لهذا العالم (٣)

---

(١) مصطفى صبري : موقف العقل والعلم والعالم ٣ / ١٠٣ ، نشر دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الثانية ١٩٨١م .

(٢) مصطفى صبري : موقف العقل والعلم والعالم ٣ / ٢٣٨ .

(٣) لابد من الإشارة إلى أن هذه النظريات التي تتحدث عن بداية الخلق أو نشأة العالم لا تتعارض مع الوجود الإلهي المتعالي عن الطبيعة ، فأيا ما كانت بداية الخلق فإنها ولابد وأن تفترض وجود الخالق لهذا الكون ، ومع ذلك تبقى هذه النظريات في حيز الإمكان دون الضرورة ، إذ هي مجرد اجتهادات قد تتغير وتحل محلها نظريات أخرى وقد يظهر خطؤها فيما بعد ، وذلك لأن الوصول إلى تحديد كيفية الخلق وبدايته هو من الأمور الخارجة =

=

، كنظرية الانفجار العظيم [1] غيرها، وهذا معناه أن للطبيعة بداية وليست بأزلية،فإذا كان الله هو الطبيعة والطبيعة لها بداية، إذن الله له بداية، وبالتالي ليس بأزلي.

الثاني : لو كان الله هو الطبيعة لكان محلا للحوادث، ولو كان محلا للحوادث لكان حادثا مثلها، وبالتالي تسقط عنه صفة الأزلية.

الوجه الرابع : إن القول بالتوحيد بين الإله والطبيعة – أو اعتقاد وحدة الوجود – هو قول مخالف للعقل والحس، فالبداهة شاهدة بتعدد الموجودات تعددا حقيقيا، ودالة على أن الذوات متعددة و مختلفة بالحقيقة.

=عن العقل الإنساني وقدرته المعرفية ، إذ يقول : ﴿ **ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا** ﴾
[الكهف آية : ٥١] .

(١) نظرية الانفجار العظيم : تمثل نظرية الانفجار العظيم التفسير الأساسي لكيفية بدء الكون إذ تعطينا هذه النظرية في أبسط صورها تصورا عن نشأة الكون الذي بدأ من نقطة مفردة شديدة الكثافة أخذت تتضخم خلال ال ١٣٫٨ مليار سنة التالية لتصبح الكون الذي نعرفه اليوم Nasain Arabic. NET .

وتعتمد فكرة النظرية أن الكون كان في الماضي في حالة حارة شديدة الكثافة فتمدد ، وأن الكون كان يوما جزء واحد عند نشأة الكون ، وبعد هذا التمدد الأول برد الكون بما يكفي لتكوين جسيمات دون ذرية كالبروتونات والنيترونات والإلكترونات ، ورغم تكون نويات ذرية بسيطة خلال الثلاث دقائق الأولى للانفجار العظيم ، إلا أن الأمر احتاج آلاف السنين قبل تكون ذرات متعادلة كهربيا ، معظم الذرات التي نتجت عن هذا الانفجار كانت من الهيدروجين والهليوم مع قليل من اللثيوم ، ثم التئمت سحب عملاقة من تلك العناصر الأولية بالجاذبية لتكون النجوم والمجرات ، وتشكلت عناصر أثقل من خلال تفاعلات الانصهار النجمي أو أثناء تخليق العناصر في المستعرات العظمى Wikipedia.org

ثانيا : ?لر? على ?عتر?ضا ??سبينو?? على ?لمعجز? :

?لاعتر? ??لأ?? : ?نكا??مكا??لمعجز? ? :

تقوم حقيقة هذا الاعتراض عند اسبينوزا وغيره من المنكرين لإمكان المعجزة على أن الكون يخضع لنظام ثابت لا يتغير، وأن قوانينه لا يمكن خرقها، فالكون يسير في حتمية مطلقة كل حدث فيه مرتبط بما قبله من الأحداث ارتباطا ضروريا، وبالتالي فلا مجال لإمكان المعجزة والتي تقوم حقيقتها على دعوى خرق النظام الطبيعي وإبطال قوانينه.

وقد تبنى هذا الاعتراض دعاة الدين الربوبي[١] في القرن الثامن عشر وما بعده، واشتدت قوة هذا الاعتراض وقوي تمسكهم به مع ظهور الحتمية الفيزيائية بسبب نظريات نيوتن وغيره، فأضحى القول بإمكان المعجزات من أشد الأمور استبعادا عند كثير من المفكرين[٢].

وقد كان لهذا الاعتراض وجود في الفكر الإسلامي، إذ نسب إلى أبي بكر الرازي [٣] القول به، وأنه شكك في صحة النبوة، ورفض المعجزات،

---

(١) الدين الربوبي : هو الاتجاه الذي يقر أصحابه بوجود خالق للكون ، ولكنهم ينكرون الوحي والنبوات والأديان ، ويعتقدون أن الله لا يتدخل في الكون بعد أن خلقه . راجع المعجم الفلسفي : مراد وهبة ص ٣٥٧ – الهيئة المصرية للكتاب ، والموسوعة الفلسفية (١ / ٢٥٨) أندريه لالاند – تعريب : خليل أحمد خليل – منشورات عويدات – الطبعة الأولى ١٩٩٦م .

(٢) سلطان بن عبد الرحمن العميري : ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث ٣٥٣/٢ نشر تكوين – الطبعة الثانية ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م .

(٣) أبو بكر الرازي : محمد بن زكريا أبو بكر ، ولد بالري ونشأ بها ، اشتهر بمهارته في الطب واشتغل بالعلوم العقلية والفلسفية ، توفي ببغداد سنة إحدى عشرة وثلاث مائة ، من مؤلفاته : الطب الروحاني ، الترتيب في الكيمياء ، الحاوي في صناعة الطب ، ومنافع الأغذية ، وهناك خلاف حول مؤلفات تنسب إلى الرازي وبخاصة تلك التي شكك فيها

=

وألف في ذلك كتابين عدهما البيروني من الكفريات هما"كتاب في النبوات، وحيل المتنبئين " (١).

ويعد هذا الاعتراض من أهم الاعتراضات التي وجهها اسبينوزا للمعجزة، وهذا الاعتراض لا يمكن التسليم به، ويمكن الرد عليه بالوجوه الآتية:

الوجه الأول : إن القوانين الطبيعية لا تصدر عن الله ضرورة حتى تكون هذه القوانين ضرورية وواجبة الإطراد، كما يرى اسبينوزا " إنما هي من آثار مشيئة الله الكونية، ومشيئته ليست مقيدة من خارج، فالله يفعل ما يريد بقدرته ويحكم ما يشاء بعزته فله سبحانه أن يترك القانون الطبيعي يمضي في عمله أو أن يعطله إلى حين أو أبدا " (٢).

" أليس واضع ذلك النظام هو الله بقدرته واختياره، فهل يكون القادر المختار عاجزا عن تغيير ما وضع، وهل يقف الصانع عاجزا أمام مصنوعه لا يستطيع أن يغير فيه أو أن يفعل بإزائه أمرا أو شيئا ما فتحدث المعجزة " (٣).

إن القدرة التي خلقت العالم كما يقول " وليام استانلي جون " لا تعجز عن حذف شيء منه أو إضافة شيء إليه، ومن السهل أن يقال عنه إنه غير

= في النبوة والمعجزات ، والتي انتقد فيها الأديان . انظر : ترجمة أبو بكر الرازي في سير أعلام النبلاء ١٤ / ٣٥٥ .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الرازي لم ينكر النبوة ولم يشكك في المعجزات ، وأنه كان يؤمن بالنبوة والأنبياء ، وأن هذه الآراء التي تقول بتشكيكه في النبوة ورفض المعجزات ، دست عليه ، وهو من تصوير فلاسفة الشيعة ، يؤكد ذلك أن هذه الآراء تتناقض مع ما جاء في كتبه صحيحة النسبة إليه من آراء وأفكار تبين إيمانه بالنبوة وتعظيمه للأنبياء . راجع موقف المشائية الإسلامية من النص الديني ص٢٧٤ : ٢٧٦ د/ إنشاد محمد علي – نشر مكتبة شقرون – القاهرة .

(١) د / إبراهيم مدكور : في الفلسفة الإسلامية – منهج وتطبيقه ص٨٣ ، ٨٥ ، نشر دار المعارف – مصر – الطبعة الثانية .

(٢) د / سامي عامري : براهين النبوة ص ٥١ .

(٣) مصطفى صبري : موقف العقل والعلم والعالم ٤ / ٢٩ .

متصور عند العقل، لكن الذي يقال عنه إنه غير متصور ليس غير متصور إلى درجة وجود العالم (١).

إن ما يريد أن يقوله " ستانلي " أنه لو لم يكن هذا العالم موجودا وقيل لمن ينكر المعجزات ولا يتصور وجودها، سيوجد عالم كذا، كان جوابه أن هذا غير متصور وكان نفي تصوره أشد من نفي تصور المعجزات (٢).

إن معنى عموم قدرته تعالى على كل شيء، أنه قادر على كل شيء ممكن إمكانا عقليا، ونطاق هذا الإمكان أوسع بكثير مما يظنه منكرو المعجزات، إذ يدخل في الممكن كل ما ليس بمحال عقلي ولا مستلزم للمحال كالجمع بين النقيضين ورفعهما، والدور، والتسلسل (٣).

ولذا كان ربط اسبينوزا بين ضرورة القوانين الطبيعية وإنكاره المعجزة، في غير محله، ولا يمكن التسليم به، وذلك لأن العلاقة التي يراها اسبينوزا بين الظواهر الطبيعية ضرورية، ليست كذلك، وإنما هي محكومة بالقدرة والإرادة الإلهيتين، وبالتالي يمكن خرقها عن طريق تعطيل هذه القوانين، فتحدث المعجزة، ولا يمكن أن يقال إن اسبينوزا هنا يسوي بين الإله والطبيعة، وأن قدرة الله هي نفسها قدرة الطبيعة، فإذا ما حدثت المعجزة فإن الله يناقض طبيعته، وذلك لأنه كما بيناه سابقا أن التوحيد بين الله والطبيعة، هذا المبدا الذي اعتنقه اسبينوزا مخالف لبداهة العقل والحس.

الوجه الثاني : إن قوانين الطبيعة والتي يراها اسبينوزا ضرورية لا يمكن تغييرها، هي " في الواقع قوانين وضعية غير ناشئة عن طبيعة الأشياء حتى لا يمكن تغييرها، ومعنى كونها قوانين أنها قضايا مطردة الصدق إطرادا عاديا غير بالغ مبلغ الضرورة والوجوب فلا يكون خلافه محالا عقليا " (٤).

---

(١) نفس المرجع ٤ / ٢٧ .
(٢) مصطفى صبري : موقف العقل والعلم والعالم. ٤ / ٢٧ .
(٣) نفس المرجع ص٢٦ ، ٢٧ .
(٤) مصطفى صبري : موقف العقل والعلم والعالم ٤ / ٣٠ .

فهذه القوانين واصفة لعمل الطبيعة وليست ذات إرادة تسلطية على الكون،فنحن نضع صورة القانون في أذهاننا من خلال وصف عمل الطبيعة، وليس فيما هو وصفي ما يمنع من أن يتغير حاله أو يتعطل لعارض[١]،كتدخل إرادة الله تعالى حتى تحدث المعجزة والتي هي ممكنة في نفسها غير مستحيلة عقلا أو واقعيا.

الوجه الثالث : نسلم فيه لاسبينوزا بأن القوانين الطبيعية ثابتة، ولكن لا نسلم له بعدم إمكان المعجزات " إذ ما الذي يمنع أن تحول المعجزة دون سريانه بفعل إرادي حر يتدخل في الطريق، مثال ذلك أننا نرى تفاحة تسقط من فرعها، فتهوى نحو الأرض بفعل قانون الجاذبية، ولكن حين تشرع يد لتلقفها وهي في طريق سقوطها فلا نقول إن اليد أبطلت قانون الجاذبية، بل إن القانون لا يزال قائما غير أن إراد بشرية حالت دون تطبيقه لا أكثر ولا أقل.. أليس من باب أولى أن الله سبحانه وتعالى صاحب الإرادة الحرة يستطيع أن يعطل قانون الطبيعة حينا قد يقصر أو يطول "[٢]، وما الذي يمنع أن هناك قوة غير مادية تفعل فعلها وتؤثر في مجرى الطبيعة فتنتج كل هذه الخوارق والمعجزات[٣].

فقد يحدث الله تغييرا في طبيعة الأشياء وخواصها، فتخرج من نطاق التأثير المخصص والمحدد لها إلى نطاق آخر غير الذي كان، فتحدث المعجزة دون إبطال لهذه القوانين، كما حدث في معجزة نبي الله إبراهيم عليه السلام، حينما سلب الله خاصية الإحراق من النار وتحولها إلى خاصة البرد، حتى لا تؤثر في إبراهيم عليه السلام إذ قال تعالى : ﴿ قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ [الأنبياء آية : ٦٩] فحدثت المعجزة وظلت قوانين الطبيعة

---

(١) د / سامي عامري : براهين النبوة ص ٥٢ .

(٢) د / زكي نجيب محمود : مقال بين المعجزة والعلم – مجلة الرسالة العدد ١٢٢ مجلد ٢ ص ١٧٦٩ – ١٧٧١ لسنة ١٩٣٥م نقلا عن التفكير الفلسفي عند زكي نجيب محمود ص١٩ ، د / فاطمة إسماعيل – نشر الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٣م .

(٣) المرجع السابق ص ٢٠ .

كما هي قائمة، وكل ما حدث هو تعطيل لحظي أو وقتي لطبيعة النار الأساسية وتحولها إلى طبيعة أخرى هي البرد.

الوجه الرابع : إن اعتراض اسبينوزا على إمكان المعجزة تحت دعوى التناقض أو التضاد بين القوانين الطبيعية وحدوث المعجزة، يمكن تفاديه إذا قلنا بأن المعجزة قد تحدث ليس عن طريق إيقاف القانون الطبيعي وإنما عن طريق إضافة قوة جديدة لقوة غير مادية في الظواهر الطبيعية المادية.

فقانون الجاذبية مثلا يعمل في الأرض، فإذا ما خرج الشيء عن محيط الأرض انعدم الوزن وامتنع السقوط، ومن هذا يفهم أن هذه القوانين تعمل وفق مجالها الخاص والمحدد، حتى تعمل إرادة قوية على التخلص من تأثيرها.

الوجه الخامس : المعجزات مخالفة لتجربة الإنسان مع الطبيعة وليست مناقضة لها كما يزعم اسبينوزا فهي من الممكنات العقلية التي لم يشهدها عامة الناس، وإثبات المعجزة بذلك مسألة تاريخية وليس مسألة فلسفية، وتصديقها مرده إلى صدق الشهود، فإن الأحداث تصدق بمعانيها أو بالخبر الصادق عنها وبآثارها [١].

الوجه السادس : إن الحكم بإمكان المعجزة أو استحالتها لا يدخل في اختصاص العلم الطبيعي، نعم قد يكون من اختصاصه الحكم بأن المعجزة تخالف سنة الكون، لكن بشرط ألا يتجاوز حكمه إلى الحكم باستحالة المخالف لسنة الكون، لأن هذا العلم الطبيعي لا يعرف المحال ولا الممكن ولا الواجب [٢].

وكذلك لا يوجد برهان قاطع على أن الطبيعة مطردة بلا استثناءات، حتى يحكم اسبينوزا باستحالة المعجزة، بل يوجد من النظريات ما يؤكد أن هناك مجالا للاحتمالية في ظواهر هذا الكون، مثل نظرية الكوانتم وغيرها من

---

(١) د/ سامي عامري : براهين النبوة ص ٥٢ .

(٢) مصطفى صبري : موقف العقل والعلم والعالم ٤ / ١١٠ .

النظريات الأخرى – كما بينا سابقا – وهذا يعني أنه لا وجه لتمسك اسبينوزا بحتمية القانون الطبيعي في رفضه إمكان المعجزات.

الوجه السابع :إن جزم اسبينوزا بأن القوانين الطبيعية لا تنخرم مصادرة على المطلوب أو كما يقول " سي. أس. لويس " : " لن نعلم أن تجارب التاريخ الشاهدة ضد المعجزات موحدة إلا إذا علمنا أن كل الروايات عن المعجزات كاذبة، ولن يكون في وسعنا أن نعرف أن جميع هذه الروايات كاذبة إلا إذا كنا نعرف بالفعل أن المعجزات لم تحدث البتة، وفي الواقع نحن واقعون في التفكير الدائري " وبعبارة أخرى : لا يمكننا الجزم بأن القوانين الطبيعية مطردة لا تنخرم أبدا حتى نعلم أن ما يخرم هذا الإطراد لم يوجد أبدا، ولذلك لا يجوز أن نبدأ في الاستدلال لعدم إمكان خرم نظام الطبيعة من نتيجته التي هي عدم ثبوت انخرامها " [١].

---

(١) د / سامي عامري : براهين النبوة ص٥٣ .

?لاعتر؟ ??لثا ? :?لمعجز؟ ? لا تثبت ?جو?? لله :

تقوم حقيقة هذا الاعتراض عند اسبينوزا على أن حدوث المعجزات يؤدي إلى الشك في الله وفي كل شيء، وبالتالي فإن المعجزات لا تدل على وجود الله، وذلك بخلاف النظام الطبيعي الثابت الذي لا يتغير، فإنه يثبت وجود الله وعنايته بطريق أوضح.

الرد : إن هذا الاعتراض لا يمكن التسليم به لاسبينوزا، ويمكن دفعه بعدة وجوه منها :

الوجه الأول : أنه لا تضاد بين نظام الطبيعة والمعجزات في الكشف عن وجود الله كما يزعم اسبينوزا، وذلك لأن النظام الطبيعي دال على خالق هذا الكون، والمعجزات تدل على قدرة خالق هذا الكون وتصرفه فيه بعد خلقه على وفق علمه وإرادته. " فنظام الطبيعة دليل على وجود الله، وتغييره بالمعجزة دليل على وجود أنبياء الله تعالى " (١).

الوجه الثاني : إن ما ذهب إليه اسبينوزا من أن المعجزة لا تدل على العناية الإلهية، تعسف منه في استخراج تضاد بين القانون الطبيعي والمعجزة، إذ المعجزة تدل بوجودها على ذات قادرة تملك أن توقف دق الناموس الطبيعي، وقد تدل على العناية الإلهية بصورة أضيق من القانون الطبيعي، وذلك بنصرة نبي أو أمة من المؤمنين عند محنة أو إكرامهم بعطاء، أو تأييدهم ببرهان، ونصرة الصالحين أصل للعناية الإلهية الكبرى التي تقيم العدل في هذا الوجود (٢).

الوجه الثالث :المعجزة في العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي لا تختلف في شيء عن القانون الطبيعي، من حيث كونها من خلق الله، فكلاهما أمر عادي من خلقه " فالكون وجد بإرادة الله، وقوانينه تعمل بأمر الله، والمعجزات تحدث فيه بمشيئته تعالى،وقد أراد الله أن يظهر صفاته وصدق بعض خلقه في خرق

---

(١) مصطفى صبري : موقف العقل والعلم والعالم ٤ / ٣٠ .

(٢) د / سامي عامري : براهين النبوة ص ٤٨ .

هذه القوانين بالمعجزات،كما أظهر وجوده وعظيم صفاته من خلال القوانين الطبيعية"[١].

فالمعجزات ونظام العالم، والقانون الطبيعي، وكل ما يحدث في هذا الكون مرده إلى الفاعل الحقيقي في هذا الكون " فالحوادث كلها حدثت بقدرته، فهو الخالق المبدع لا خالق سواه ولا مخترع إلا هو " [٢].

الوجه الرابع : إن إنكار المعجزات يلزم منه إنكار وجود الله وليس إثبات وجوده كما توهم اسبينوزا، لأنه بذلك الإنكار لا يعترف بالقدرة الإلهية التي أبدعت وأنشأت الكون ونظامه، والتي بإمكانها خرق هذا النظام وتعطيل هذه القوانين.

?لاعتر? ??لثالث :?لمعجز? لا تد ? على صد ??لوحي?لإ ?ي :

وتقوم حقيقة هذا الاعتراض عند اسبينوزا على افتراض حدوث المعجزة، ولكنها ليست دليلا على صدق الوحي، لأنها قد تحدث على يد الكاذبين مدعي النبوة، وقد تحدث لبعض الصالحين، والوثنيين، كمعجزة الإسكندر في البحر الأحمر، ومن ذلك يفهم أن المعجزات ليست خاصة بالأنبياء وحدهم، فلا تفيد صدقهم ولا العلم برسالتهم.

الرد : إن هذا الاعتراض يمكن دفعه بعدة وجوه منها :

الوجه الأول : إن في معجزات الأنبياء دلالة كافية على صدقهم في دعوى النبوة للذين شرح الله صدورهم للإيمان، ولا يقدح في قيمة المعجزات ودلالتها على صدق النبي، ظهور أشباهها الزائفة على أيدي الكاذبين من السحرة والمشعوذين، ولذا لم يمنع هذا التشابه سحرة فرعون من الإيمان بمعجزة موسى عليه السلام [٣].

الوجه الثاني : هذا الاعتراض الذي أقامه اسبينوزا لا يسلم له ضمن التصور الإسلامي لمفهوم المعجزة وشروطها، وذلك لأن المعجزة في التصور الإسلامي

---

(١) نفس المرجع ص ٥١ .

(٢) الجويني : الإرشاد ص١٨٧ .

(٣) مصطفى صبري : موقف العقل والعلم والعالم ٤ / ١٢٩ .

لها شروط يجب توافرها حتى تتحقق وتدل على صدق مدعي النبوة، منها أن تكون موافقة لدعواه وأن تتعذر معارضته [١].وفي هذين الشرطين خروج لأفعال الكاذبين والسحرة والمشعوذين.

الوجه الثالث : هذا الاعتراض من قبل اسبينوزا، ما هو إلا إساءة واضحة للذات الإلهية، بوصفها عجزت عن اختيار ما يدل على صدق النبي في دعواه النبوة، وهذا ما يتنافى مع الكمال الإلهي وقدرة الله المطلقة التي يدعيها.

الوجه الرابع : إن ظهور المعجزة على يد الكاذب – وإن جاز عقلا – بناء على شمول قدرة الله، فمعلوم انتفاءه قطعا كما هو حكم الله في سائر العاديات [٢].

الوجه الخامس : إن رفض المعجزات تحت زعم أنها لا تدل على صدق الوحي يلزمه ضرورة إنكار النبوة، وذلك لأن " المعجزة والنبوة سيان في كونهما من الأمور الغيبية الخارقة لسنن الكون، بل إن علامة النبوة الحقيقية هي المعجزة الحقيقية الخارقة المعدودة من الأمور الغيبية " [٣].وهذا الرد لازم لكل من يؤمن بالنبوة وينكر المعجزات.

الوجه السادس : وهو فيما يخص المثال الذي نقله اسبينوزا عن يوسف المؤرخ واستند إليه في بيان أن المعجزات لا تدل على صدق الوحي، فإنه يمكن دفعه بنفس طريقة اسبينوزا، وذلك بالتشكيك فيه، كأن يقال بأن هذه الرواية قد تكون تعبيرا مجازيا من الرواة في نقلهم للواقعة، أو أنها إضافة منهم لغاية ما في نفوسهم، أو أن الأمر التبس عليهم نتيجة لقصور في الحواس وعدم سلامة الإدراك.

---

(١) انظر : المعجزة في الإسلام في تمهيد البحث ص ٨ .

(٢) التفتازاني : شرح المقاصد (٥ / ١٥ ، ١٤) .

(٣) مصطفى صبري : موقف العقل والعلم والعالم ٤ / ١٢٩ .

?لاعتر؟ ??لر؟بع :?لإيما ? بالمعجز؟ ? يتناقض مع ?لمعرفة ?لإنسانية:

وتقوم صورة هذا الاعتراض عند اسبينوزا على القول بأنه لو جاز حدوث المعجزات لأدى ذلك إلى الشك في الأفكار الأولية، والقبول بأفكار تناقض الضرورة والبداهة العقلية، وهذا يؤدي إلى فساد المعرفة الإنسانية، وبالتالي فالمعجزات غير ممكنة.

وهذا الاعتراض قديم، فقد ذكره الرازي ضمن الاعتراضات التي وجهت لدلالة المعجزة على صدق النبي وصورته أن القول بإمكان المعجزة يفضي إلى السفسطة، ولو فتحنا هذا الباب لم نأمن أن تنقلب الجبال ذهبا أبريزا، وأن ينقلب ماء البحر دما صرفا، وأن يكون هذا الشخص الذي نشاهده الآن شيخا صار هرما، وأن يكون قد حدث في هذه الساعة شيخ من غير أب ولا أم... ومعلوم أن تجويز هذه الأشياء يفضي إلى الجهالات ولما كان ذلك باطلا، علمنا أن انخراق العادات غير ممكن (١).

الرد : إن هذا القول فاسد ولا يمكن التسليم به، لأنه قائم على تصورات خاطئة عن حقيقة المعجزة، وفساده بين من وجوه ثلاثة :

الوجه الأول : إن القول بحدوث المعجزات يؤدي إلى الشك في الأفكار الأولية والقبول بأفكار تناقض الضرورة العقلية،هوخلط من اسبينوزا بين مدركات الذات الإنسانية وحدودها، فما يدرك بالحس لا ينفع معه الخيال، وما يدرك بالعقل يتعدى حدود ما يدرك بالحس والخيال، ولذلك لا يمكن تحكم العقل فيما هو خارج حدوده، فالمعجزات من الأمور الغيبية التي لا تخضع لمقاييس العقول، وفي ذات الوقت لا تحكم باستحالتها،وعجز العقول عن تفسيرها عقليا لا ينفي إمكانها ذاتيا.

---

(١) الأربعين في أصول الدين ١ / ٣٩ تحقيق : د / أحمد حجازي السقا – نشر دار الجيل – الطبعة الأولى ٢٠٠٤م .

الوجه الثاني : إن دعوى أن الإيمان بالمعجزات يؤدي إلى الشك في المعرفة الأولية هي دعوى منقلبة على الرافضين للمعجزات، وذلك أن كثيرا من الرافضين للمعجزات بناء على هذه الدعوى " تبنوا آراء ومواقف تؤدي بالضرورة إلى إحداث أضرار بالغة بالمنظومة المعرفية، وتدخل العقل الإنساني في متاهات من الشكوك وأصناف من الاضطرابات المعرفية، فكثير من أتباع التيار الإلحادي صرح بإنكار المبادئ الأولية وانتهى إلى أن المعرفة الإنسانية نسبية في كل مجالاتها، وأنها لا تقوم على أصول كلية مطلقة، وهذه الرؤية تؤدي بالمعرفة الإنسانية إلى الوقوع في متاهات السفسطة وتدخل العقل الإنساني في أنواع من الشكوك العاتية (١).

الوجه الثالث : إن القول بأن حدوث المعجزات يؤدي إلى القدح في البدهيات بحجة أن حدوثها أمور كسبية ولا يصح القدح بها في الأمور البدهية التي هي قوانين الكون، قول غير صحيح، لأن حدوث الأمور المعجزة التي تقع على أيدي الأنبياء ليست من قبيل الأمور الظنية الاحتمالية، وإنما هي من قبيل الأمور القطعية المدركة بالضرورة الحسية التي تفيد اليقين والقطع (٢).

?لاعتر? ? ?لخامس : ?لتشكيك ? نقل ?لمعجز? ? ?ثبو ? صحة ?قوعها:

وتقوم صورة هذا الاعتراض عند اسبينوزا في الشك في مصداقية رواة المعجزات وطرق نقلهم لها، فهو يرى – كما بينا سابقا – أنه إذا وجدت ظاهرة في الكتاب لا يمكن تفسيرها بالعلل الطبيعية، فهي إما خلط من الرواة بين الحادثة وأحكامهم المسبقة، أو إضافة منهم.

---

(١) د / سلطان العميري : ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث ٢ / ٣٦٠ .
(٢) نفس المرجع ص ٣٥٩ .

وقد وجدت صورة هذا الاعتراض في الفكر الإسلامي.. فقد اشتهر عن ابن الراوندي[١] أنه كان ينكر المعجزات ويرى أنها غيرمقبولة في جملتها ولا في تفاصيلها، ويرى أنه من الجائز أن يكون رواتها وهم شرذمة قليلة، قد تواطأوا على الكذب فيها،ويقول:"فمن الذي يسلم أن الحصى يسبح أو أن الذئب يتكلم "[٢]

ومن ذلك أيضا " أن بعضا ممن ينكرون نبوة النبي (ﷺ) طعنوا في طرق نقل معجزاته عليه أفضل الصلاة والسلام وقالوا : نحن ما شاهدنا شيئا من هذه المعجزات، ولا طريق لنا إلى العلم بأنها حصلت وقت دعواهم، إلا أن الناس يخبرون عن ذلك، غير أن الخبر لا يفيد العلم وأقصى ما في الباب أنه يفيد الظن، إلا أن الظن غير معتبر في هذا الباب "[٣].

وكما هو واضح أن هؤلاء ينكرون المعجزات بناء على تشككهم في طرق نقلها وأنها لا تفيد اليقين.

الرد : هذا الاعتراض مدفوع من عدة وجوه، منها :
الوجه الأول : أن رفض المعجزات عن طريق الشك في رواتها، وإن جاز التسليم به لاسبينوزا في حديثه عن معجزات الكتاب المقدس في بعضها لا في جملتها، لما لحقها من التحريف والتبديل، وانقطاع السند وعدم تواتر النقل،

---

(١) أحمد بن يحيى بن إسحاق بن الراوندي ، من أهل مرو الرود سكن بغداد كان من متكلمي المعتزلة ثم تزندق ، وقيل كان أبوه يهوديا ، قال القاضي أبو علي التنوحي : كان أبو الحسين ابن الراوندي يلازم أهل الإلحاد فإذا عوتب في ذلك قال إنما أريد أن أعرف مقالتهم ، ذكرت كتب التراجم أن مؤلفاته بلغت نحو ١١٤ كتابا منها : التاج ، ونعت الحكمة ، وفضيحة المعتزلة ، وقضيب الذهب . انظر : تاريخ بغداد ٢١ / ٥٧ ، سير أعلام النبلاء ١٤ / ٦٠ ، ٦١ .

(٢) د/ إبراهيم مدكور : في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ص ٨٢ .

(٣) الرازي : الأربعين في أصول الدين ١ / ٢٩٥ .

فإنه لا يمكن التسليم به فيما يتعلق بمعجزات النبي محمد (ﷺ)، فهي موثوق فيها، وإن دعوى عدم صحتها أو العجز عن التحقق من حدوثها لا ترد عليها، وذلك لأمور، منها :

الأول : إن الآيات التي ظهرت حجة لنبوة النبي محمد (ﷺ)، محفوظة بعناية في سفر التاريخ، وهي تقوم على أصول علمية منضبطة " وذلك أن المسلمين شيدوا علما بأكمله من أجل حفظ الرواية وضبطها، وهو علم الحديث، ووضعوا قوانين صارمة من اجل ضبط الرواية في جميع مراحلها، منها ما يتعلق بالراوي من حيث عدالته، ومروءته، وسلامة الحواس، وسلامة الذاكرة، وسلامة ضبطه للرواية بأن يكون حافظا لمروياته عن ظهر قلب، ومنها ما يتعلق بالسند من حيث اتصاله أو انفصاله (١).

وقد شهد للتميز الإسلامي في حفظ السيرة منذ زمن مبكر المستشرق اليهودي " برنارد لويس " – المعروف بمواقفه السلبية من الإسلام – إذ يقول : " أدرك علماء الإسلام في مرحلة مبكرة خطر الشهادات المزيفة وبالتالي العقائد الباطلة، ولذلك طوروا علما مفصلا لنقد الحديث، يتميز علم الحديث – كما كان يسمى – من عدة نواح عن النقد المصدري التاريخي الحديث،... وكان نقد علماء الحديث الدقيق للأسانيد وجمعهم الدقيق للاختلافات واحتفاظهم بها في نقل الروايات يعطي لعلم التأريخ العربي مهنية ومراسا لا نجد له نظيرا في القديم ولا مماثلا في القرون الوسطى في الغرب " (٢).

الثاني : أن نقل معجزات النبي محمد (ﷺ) تتوافر في مجموعة شروط المتواتر، وكثير من هذه المعجزات ثابت بيقين، ومقطوع به عند أهل العلم بالآثار والسير والأخبار، وفي ذلك يقول ابن حجر :" ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يده صلى الله عليه وسلم من خوارق العادات شيء كثير، كما يقطع بوجود جود حاتم، وشجاعة علي، وإن كانت أفراد ذلك ظنية وردت مورد

---

(١) د / حسن حنفي : مقدمة رسالة في اللاهوت والسياسة ص٦٩ .

(٢) د / سامي عامري : براهين النبوة ص ٨١ .

الآحاد مع أن كثيرا من المعجزات النبوية قد اشتهر وانتشر ورواه العدد الكثير والجم الغفير، وأفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار والعناية بالسير والأخبار، وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه الرتبة لعدم عنايتهم بذلك، بل لو ادعى مدع أن غالب هذه الوقائع مفيدة للقطع بطريق نظري لما كان مستبعدا، ولا مرية أن رواة الأخبار في كل طبقة قد حدثوا بهذه الأخبار في الجملة، ولا يحفظ عن أحد من الصحابة، ولا من بعدهم مخالفة الراوي فيما حكاه من ذلك، ولا الإنكار عليه"(٢).

الثالث : أن العلماء وضعوا شروطا للخبر لكي يوصف بالتواتر ويفيد العلم اليقيني، وهذه الشروط تتمثل في :

الأول : أن يكون عدد الرواة كثيرا إلى حد يمتنع معه في العادة تواطؤهم على الكذب.

الثاني : أن يكون الخبر مستندا انتهاؤه إلى الحس من مشاهدة أو سماع.

الثالث : أن يكون حال جميع الطبقات في الكمية والكيفية مساوية لحال الطبقة الأولى في الكيفية والكمية (١).

فإذا ما توافرت هذه الشروط كان الخبر مفيدا للعلم اليقيني، وكان رد خبر المعجزة تكلفا دون حجة (٢)، وهذه الشروط متحققة في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم

وإذا ما نظرنا إلى معجزات النبي " صلى الله عليه وسلم " وجدنا أنها بلغت حدا من التواتر يورث معه العلم الضروري بصدقه " ﷺ" وصدق معجزاته.

---

(١) راجع فتح الباري ٧ / ٣٩٢ ، نشر مطبعة الحلبي – القاهرة .، براهين النبوة – ص ١٥٨

(٢) الرازي : الأربعين في أصول الدين ١ / ٢٩٨ .

وبهذه الأمور لا ينطبق اعتراض اسبينوزا على معجزات النبي " صلى الله عليه وسلم ".

الوجه الثاني : إن الحكم بصدق نقل المعجزات يتمثل في أمرين : الأول: هو فحص طبيعة الخبر فهل يذكر شيئا من محالات العقول أم لا. والثاني : في أن تكون الأسانيد الناقلة للخبر على القوة التي توافق غرابته، فما يروى أنه قد حدث أمام جم غفير من الناس ثم لا يرويه إلا واحدا رغم توافر الهمم لنقله عن كثيرين لا يكون محل تصديق " [1].

(١) د / سامي عامري : براهين النبوة ص ٥٤ .

الخاتمة :

كان هدفنا الأساسي من هذا البحث، والذي أفصحنا عنه في المقدمة، نقد موقف اسبينوزا من المعجزة، وقد تتطلب ذلك منا عرض تصور اسبينوزا للمعجزة، واعتراضاته عليها، والمبادئ التي بنى عليها هذه الاعتراضات، ثم نقدها والرد عليها.

وقد تبين لنا من خلال هذا العرض أن المقصود بالمعجزة عند اسبينوزا : أنها مجرد عمل يتجاوز حدود الفهم الإنساني له علته الطبيعية التي تفسره، وعلى هذا المعنى أقام اسبينوزا تفسيره لمعجزات الكتاب المقدس، أما المعنى المتداول للمعجزة عند العامة والموسوم بأنها خارقة للعادة، فقد رفضه اسبينوزا رفضا تاما، ونسبه إلى الجهل والخرافة.

وقد تبين لنا بناء على مبادئ فلسفة اسبينوزا واعتراضاته على المعجزة، أن المعجزة سواء أكانت عملا خارقا للعادة أم عملا يتجاوز حدود الفهم الإنساني، فإنها غير ممكنة وممتنعة الوقوع عند اسبينوزا، وذلك يعود أولا : إلى رفض اسبينوزا خرق النظام الطبيعي وثانيا : أن المقصود بلفظ المعجزة عنده أنها عمل يتجاوز حدود الفهم الإنساني له علته الطبيعية الموافقة لقانون الطبيعة، وهذا المعنى يفهم منه عدم وجود المعجزة، لأنه لا تكون معجزة إلا بخرقها لقوانين الطبيعة.

وقد تبين لنا أن فلسفة اسبينوزا ذاتها تستدعي إنكار المعجزات

إذ أنها في الأساس تقوم على مبدأين أساسيين التسليم بهما يقتضي رفض المعجزات وهما :

أولا : مبدأ الحتمية، والذي يعني سيادة الضرورة في الكون : بما فيه الإله، وظواهر الطبيعة، والإنسان، فكل ما في الكون يسير وفق حتمية صارمة لا يمكن أن تنخرم.

وثانيا : التوحيد بين الإله والطبيعة، والذي يعني أن الطبيعة في مجموعها الكلي هي الله، والله هو الطبيعة، فإذا كان الله هو الطبيعة فلا مجال للقول بوقوع المعجزات أو إمكانها، لأن حدوث ذلك يعني أن الله يعمل ضد طبيعته، وهو محال عقلا.

وقد تبين لنا بالرجوع إلى النظريات الحديثة في علم الطبيعة فساد هذين المبدأين، ففيما يتعلق بمبدا الحتمية فقد أثبت النظريات العلمية الحديثة كالكوانتم وغيرها أن الحتمية ليست قانونا مطردا في جميع ظواهر الطبيعة، وأنه يوجد ظواهر طبيعية لا تخضع للحتمية المطلقة، مما يفيد أن ثمة مجالا للاحتمالية في الظواهر الطبيعية، فضلا عن ذلك فإن هذا المبدأ يتضمن افتراضات تحتاج إلى البرهنة على صدقها حتى يمكن الحكم بصدقه، منها : افتراض النظام في الطبيعة، وأن هذا النظام مطرد الوقوع، وأنه محكوم بعلاقة العلية، وهذا ما لم يستطع أحد أن يبرهن عليه بطريقة قياسية كانت أم تجريبية.

أما فيما يخص التوحيد بين الإله والطبيعة فقد تبين لنا أن هذه الفكرة مخالفة للحس والعقل، إذ أن تعدد الموجودات تعددا حقيقيا هو أمر موجود ومشاهد تحكم به البداهة الحسية والعقلية، وكذلك فإن هذا المبدأ يتناقض مع التصور الإسلامي الصحيح للعلاقة بين الوجود الإلهي والوجود الطبيعي، القائم على التنزيه والتوحيد للذات الإلهية.

وقد تبين لنا أن رفض اسبينوزا إمكان المعجزات تحت دعوى أن القوانين الطبيعية ضرورية لا يمكن خرقها، لا يمكن التسليم بها ولا قبولها، لأن القوانين الطبيعية هي قوانين وضعية واصفة لعمل الطبيعة وليست ناشئة عن طبيعة الموجودات حتى توصف بالضرورة ولا يمكن تغييرها، بل إن الله وهو واضع هذه القوانين في قدرته أن يغيرها كيفما شاء، وإلا فلا معنى لعموم قدرته وتعالى ووصفه بالقدرة على كل شيء.

وقد تبين لنا أن إنكار اسبينوزا للمعجزات تحت زعم أنها لا تثبت وجود الله وتؤدي إلى الشك في وجوده وذلك بخلاف القانون الطبيعي المثبت لوجوده وعنايته، بأنه قائم على خلق تضاد بين القانون الطبيعي والمعجزة، وذلك

غير صحيح، لأن كلاهما من فعل الله تعالى وخلقه، فإذا كان النظام الطبيعي دالا على خالق هذا النظام فإن المعجزة تدل على قدرة هذا الخالق للنظام وتصرفه فيه بعد خلقه على وفق علمه وإرادته.

وقد تبين لنا أن زعم اسبينوزا بأن المعجزة لا تثبت صدق الوحي الإلهي تحت دعوى أنها ليست خاصة بالأنبياء وأنها قد تظهر على أيدي الكاذبين والصالحين من الوثنيين، بأن هذه الدعوى لا تصدق على التصور الإسلامي للمعجزة من حيث مفهومها، وشرائطها، ودلالتها على صدق مدعي النبوة، وكذلك فإن ظهور بعض الخوارق على يدي الكاذبين وإن جاز عقلا بناء على شمول قدرة الله عز وجل، فإنه ممتنع في العادة.

وقد تبين لنا أن زعم اسبينوزا بأن المعجزات تؤدي إلى فساد المعرفة تحت دعوى أنه يلزم على وقوعها الشك في المعرفة الأولية، والقبول بأفكار تناقض الضرورة العقلية، بأنه خلط من اسبينوزا بين مدركات الذات الإنسانية وحدودها، وذلك أن ما يدرك بالعقل يفوق ما يدرك بالحس والخيال، فكيف نحكم العقل الموسوم بالنهاية فيما يفوق إدراكه ويتعدى حدوده ونحكم باستحالته، كالمعجزات.

وقد تبين لنا فيما يتعلق بتشكيك اسبينوزا في نقل المعجزات، بأن هذا الاعتراض قد وجدت صورته في الفكر الإسلامي، وقد رد عليه علماء العقيدة الإسلامية بما بين فساده وتهافته، ونقول إن هذا الاعتراض وإن جاز التسليم به لاسبينوزا فيما يخص معجزات الكتاب المقدس، لأسباب منها : وقوع التحريف والتبديل، وانقطاع السند، فإنه لا يمكن التسليم به فيما يخص معجزات النبي " صلى الله عليه وسلم "، إذ هي موثوق بها، ويقوم نقلها على قواعد علمية منضبطة وبلغت حدا من التواتر لا يمكن معه الإنكار.

فهرس المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم.
* ابن منظور " أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري ".
٢ – لسان العرب – نشر دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى.
* أبو ريان " د/ محمد علي أبو ريان ".
٣ – تاريخ الفكر الفلسفي – الفلسفة الحديثة – دار المعرفة الجامعية الإسكندرية – طبعة ١٩٩٤م.
* إسماعيل " د/ فاطمة إسماعيل ".
٤ – التفكير الفلسفي عند زكي نجيب محمود – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠١٣م.
* الآمدي " سيف الدين أبو الحسين علي بن أبي علي ت٦٣١هـ "
٥ – أبكار الأفكار – تحقيق : د/ أحمد المهدي – دار الكتب المصرية الطبعة الثالثة ٢٠٠٩م.
* الإيجي " عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد "
٦ – المواقف في علم الكلام– نشر عالم الكتب– بيروت– بدون تاريخ.
* البخاري " محمد بن إسماعيل البخاري ت ٢٥٦هـ ".
٧ – صحيح البخاري " الجامع الصحيح المسند من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم – طبعة دار الريان – القاهرة.
* البوطي " د/ محمد سعيد البوطي "
٨ –كبرى اليقينيات الكونية – دار الفكر – الطبعة السادسة – ١٣٩٩ هـ.
* التفتازاني " مسعود بن عمر بن عبد الله ت ٧١٢هـ ".
٩ – شرح المقاصد – نشر عالم الكتب – بيروت – الطبعة الثانية ١٤١٩هـ.
* الجويني" إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله ت٤٧٨هـ.
١٠ – الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد – تحقيق : د / محمد يوسف موسى، د/ علي عبد المنعم عبد الحميد – نشر مكتبة الخانجي – مصر ١٩٥٠م.

١١ – العقيدة النظامية – تحقيق : د / محمد الزبيدي – دار النفائس بيروت – الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.
* الرازي " أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن ".
١٢ – معالم أصول الدين– نشر مكتبة الكليات الأزهرية– بدون تاريخ.
١٣ – الأربعين في أصول الدين – تحقيق : د/ أحمد حجازي السقا – دار الجيل – الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.
* السنوسي " أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي ".
١٤ – عقيدة أهل التوحيد الكبرى – تحقيق : د / محمد نصار – الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ.
* العميري " د/ سلطان بن عبد الرحمن ".
١٥ – ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث – تكوين للدراسات والأبحاث – الطبعة الثانية ١٤٣٩هـ.
* الغزالي " أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي ت٥٠٥هـ"
١٦ – الاقتصاد في الاعتقاد – نشر مكتبة مصطفى الحلبي – مصر– بدون تاريخ.
* الميداني " عبد الرحمن حسن حبنكة ".
١٧ – العقيدة الإسلامية وأسسها– دار القلم –دمشق– الطبعة الثامنة ١٩٩٧م.
* جانيه وسياي " بول جانيه – وجبريل سياي".
١٨ – مشكلات ما بعد الطبيعة – ترجمة د/ يحي هويدي – المركز القومي للترجمة – طبعة ٢٠١٥م.
* ديكارت " رينيه ديكارت "
١٩ – تأملات في الفلسفة الأولى – ترجمة عثمان أمين – نشر مكتبة الأنجلو المصرية – الطبعة الأولى ١٩٥١م.
٢٠ – مقال عن المنهج– ترجمة د/ محمود الخضيري–كلية الآداب جامعة القاهرة.
* رسل " برتراند رسل ".

٢١ – تاريخ الفلسفة الغربية – الفلسفة الحديثة – ترجمة محمد فتحى الشنيطى– الهئية المصرية للكتاب.
* زكريا " د/ فؤاد زكريا ".
٢٢ – اسبينوزا – نشر دار التنوير – لبنان – الطبعة الثانية ١٩٨٣م.
* اسبينوزا " بندكت سبينوزا "
٢٣ – الأخلاق– ترجمة جلال الدين سعيد – نشر دار الجنوب– تونس.
٢٤ – رسالة في اللاهوت والسياسة – ترجمة حسن حنفي – الهيئة المصرية للكتاب ٢٠١٦م.
٢٥ – رسالة في إصلاح العقل – ترجمة جلال الدين سعيد– نشر دارالجنوب– تونس.
٢٦ – مبادئ فلسفة ديكارت – ترجمة جلال الدين سعيد – المركز القومي للترجمة – تونس ٢٠١٥م.
* سيف النصر " الأستاذ الدكتور عبد العزيز سيف النصر"
٢٧ – فلسفة علم الكلام في الصفات الإلهية – مكتبة الإيمان – أسيوط
* صبري " شيخ الإسلام مصطفى صبري "
٢٨ – موقف العقل والعلم والعالم – نشر دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الثانية ١٩٨١م.
* صليبا " جميل صليبا "
٢٩ – المعجم الفلسفي – الشركة العالمية للكتاب – الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
* عامري " د/ سامي عامري "
٣٠ – براهين النبوة – مركز تكوين للدراسات والأبحاث – الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ.
* عبد المعطي " د/ محمد علي عبد المعطي "
٣١ – تيارات فلسفية حديثة – المعرفة الجامعية – الإسكندرية – طبعة ١٩٩٤م.
* عبية " د/ إنشاد محمد علي "
٣٢ – موقف المشائية الإسلامية من النص الديني – مكتبة شقرون القاهرة.
* قاسم " د/ محمود قاسم "

٣٣ – المنطق الحديث – نشر مكتبة الأنجلو المصرية – بدون تاريخ.
* قنصوة " د/ صلاح قنصوة "
٣٤ – فلسفة العلم – نشر دار قباء – القاهرة ١٩٩٨م.
* كرم " د/ يوسف كريم ".
٣٥ – تاريخ الفلسفة الحديثة – دار المعارف المصرية – الطبعة الخامسة – بدون
* كريم " د/ زيد عباس كريم "
٣٦ – اسبينوزا الفلسفة الأخلاقية – دار التنوير – بيروت – الطبعة الثانية ٢٠١٢م.
* كوبلستون " فردريك كوبلستون "
٣٧ – تاريخ الفلسفة " الفلسفة الحديثة " المجلد الرابع – ترجمة سعيد توفيق – محمود سيد أحمد – المركز القومي للترجمة – القاهرة – الطبعة الأولى ٢٠١٣م.
* لالاند " أندريه لالاند "
٣٨ – الموسوعة الفلسفية – تعريب خليل أحمد خليل – منشورات عويدات – الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
* محمد " د/ يحيى محمد "
٣٩ – منهج العلم والفهم الديني – مؤسسة الانتشار العربي – بيروت الطبعة الأولى ٢٠١٤م.
* مدكور " د/ إبراهيم مدكور "
٤٠ – في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه – دار المعرفة – الطبعة الثانية.
* مسلم " مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت ٢٦١هـ "
٤١ – صحيح مسلم – نشر دار إحياء التراث العربي – بيروت.
* وهبة " د/ مراد وهبة "
٤٢ – المعجم الفلسفي – الهيئة العامة للكتاب – طبعة ٢٠١٦.